محمد حمشي | Mohammed Hemchi*

نظريات العلاقات الدولية وجائحة كورونا: أنْبذة معتَّقة في قنان جديدة ونبيذ لمَّا يُعتَّق

International Relations Theories and the Pandemic: Old Wines in New Bottles and an Aging Wine

تناقش هذه الدراسة الطرائق التي يمكن أن تفكر بها نظريات العلاقات الدولية في جائحة كورونا، وهي تستعير مقولة "نبيذٌ معتقٌ في قنانٍ جديدة" مجادلةً بأن النظريات الثلاث السائدة، أي الواقعية والليبرالية والبنائية، وخاصةً مع حداثة عهد جائحة كورونا، لا تقدم سوى المزيدِ من الشيءِ نفسه؛ وأنّ نظرية التعقد، ولأن إقحامها في حقل العلاقات الدولية ما يزال مشروعًا في مراحله المبكرة، إنما تشبه النبيذ الذي لمَّا يُعتَّق. وتخلص الدراسة إلى أن المقاربة الواقعية لهذه الجائحة تقدمها بوصفها تهديدًا يقتضي انكفاء الدول على نفسها وتمسكها بسياسة الاعتماد على الذات؛ وأن مقاربتها من منظور ليبرالي تعني التعامل معها باعتبارها تحديًا عابرًا للحدود للنظام الدولي الليبرالي، بمعاييره ومؤسساته؛ في حين أن المقاربة البنائية تقدمها باعتبارها بناءً اجتماعيًا، فهي "ما تصنعه منها الدول". أخيرًا، تحاج الدراسة بأن نظرية التعقُّد تقدم الجائحة بوصفها مشكلةً معقدةً تتطلب رؤية انتقائية تحليلية.

كلمات مفتاحية: نظريات العلاقات الدولية، جائحة كورونا، الواقعية، الليبرالية، البنائية، نظرية التعقد.

This study debates how international relations theories think about the Covid-19 pandemic. It argues that the three mainstream theories, i.e. realism, liberalism and constructivism, have nothing to offer but more of the same thing. They are assumed to be like old wine in new bottles. However, complexity theory, since its engagement in the IR field is still a project in its early stages, is like aging wine that has yet to mature. The study concludes that a realist approach presents the pandemic as a threat that requires states to adhere more to self-help politics; a liberal approach presents it as a transnational challenge to the liberal International Order and its norms and institutions; while a constructivist approach presents it as a social construction; it is "what states make of it." Finally, the study argues that complexity theory introduces the pandemic as a complex issue that requires an analytical eclectic view.

Keywords: International Relations Theories, Covid-19, Pandemic, Realism, Liberalism, Constructivism, Complexity Theory.

* باحث، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، وأستاذ مساعد، برنامج العلوم السياسية والعلاقات الدولية، معهد الدوحة للدراسات العليا.
Researcher at the Arab Center for Research and Policy Studies and Assistant Professor, Political Science and International Relations, Doha Institute.

مقدمة[1]

كثيرًا ما مثّلت سنوات بعينها لحظات تاريخية حاسمة، أثّرت في سيرورة التاريخ، وصيَّرت ما بعدها مختلفًا عما قبلها، وغالبًا ما كان التغيُّر الذي جلبته معها سريعًا (يستغرق حدوثُه فترة زمنية قصيرة) وجذريًّا (يعصف بجوانب جمّة من حياة الناس). ومع أن الاتفاق بشأن حصر تلك السنوات وأهمية التغير الذي أحدثته يظل بعيد المنال، فإن هذا الاتجاه في التأريخ والتحقيب يبقى سائدًا في الأدبيات. حدث ذلك، على سبيل المثال لا الحصر أو المقارنة، في أعوام 1648 و1815 و1914 و1945 و2001 و2008[2] و2011. وجاء عام 2020، مع تفشّي جائحة كورونا، ليُضيف لحظة تاريخية فارقة أخرى، ويُثير نقاشات تبدو الآن أقرب إلى الجَلَبة منها إلى التبادل المعرفي الحصيف، حيث يتحدث الجميع من دون أن ينصت أحد منهم إلى الآخر.

أثّر تفشي جائحة كورونا في كلّ شيء؛ في السياسة Politics والسياسات Policies، والاقتصاد والتجارة، والأسرة والمجتمع، والسفر والتنقل، والبيئة والعمران، والعمل والتعليم. وما دام الأمر يتعلق بكلّ شيء، فلا مجال للحصر هنا. لذلك، من غير المفاجئ أن لدى الجميع ما يقولونه عن الجائحة وآثارها؛ علماء الطب والبيولوجيا، والاقتصاد، والاجتماع، والنفس، والمهندسون، وعلماء البيئة، والفلاسفة ورجال الدين، ولا أحد طبعًا يمكنه ادّعاء القدرة على حصر هذه اللائحة أيضًا.

مع ذلك، ما فتئ علماء السياسة والعلاقات الدولية يتصدّرون منابر النقاش السائد بشأن الموضوع[3]؛ ذلك أن الأسئلة الأساسية التي يطرحها تفشّي الجائحة وتحدي مواجهتها تقع في صميم اختصاص علم السياسة والعلاقات الدولية[4]، بمختلف حقوله المعرفية الفرعية[5]: كيف تفشّت هذه الجائحة من دولة إلى أخرى، بهذه السرعة، وبهذا المدى، غير المسبوقَيْن في تاريخ الأوبئة المعروف؟ وكيف تتصرف حكومات الدول حيال ذلك؟ ولماذا تتباين استجابات الدول وسياساتها؟ وما أثَر تلك السياسات في حياة الناس في كل جانب من جوانبها تقريبًا؟ وما دور منظمة الصحة العالمية بوصفها مؤسسة دولية؟ وما حدود التعاون بين الدول للحدّ من تفشيها؟ وحديثًا، يمثّل الجدل بشأن توزيع اللقاحات بين الدول، وداخل الدول نفسها، سؤالًا آخرَ يتجاوز مجرد ترقّب اكتشاف اللقاحات نفسِها. وإنه لمثيرٌ للاهتمام أن كلَّ هذه الأسئلة وغيرَها إنما هي أسئلةٌ عن الدولة وعن العلاقات بين الدول؛ فضلًا عن أنها أسئلةٌ عن السياسة والسياسات، داخل الدول، وبينها، وعبرها، وحوالَيْها.

تسعى هذه الدراسة لإلقاء الضوء على الطرائق التي يمكن أن يُفكر بها حقلُ العلاقات الدولية في جائحة كورونا. وقد تطوّر هذا الحقل، خلال المئة سنة الأخيرة التي شكّلت تاريخه المؤسسيَّ بوصفه تخصصًا أكاديميًا، عبر عدد من النظريات والنقاشات النظرية المتعاقبة التي لا تخلو من جدل بشأنها. غير أن هذا ليس موضوع الدراسة؛ إذ ما يهمنا هنا هو أن فهم الطرائق التي يمكن أن يفكر بها الحقل في الجائحة (بصيغة الجمع)، يقتضي، النظر إليها عبر نَظَّارات نظريات العلاقات الدولية؛ وطالما أن الولاءاتِ النظريةَ تظل قويةً في هذا الحقل المعرفي، فإن من يُفكّر يتأثرُ بالنظرية التي يفكّر من خلالها. وتركز الدراسة على أربع نظريات أساسية؛ ثلاثٌ منها ضمن الاتجاه السائد في حقل العلاقات الدولية Mainstream، أي الواقعية والليبرالية والبنائية؛ والرابعة آخذةٌ في التأثير في أدبيات الحقل منذ مطلع هذا القرن، وهي نظريةُ التعقد[6]. وأُدرِجُ نظرية النظام-العالم ضمن منظور التعقّد، حيث سبق أن حاجّ إيمانويل فالرشتاين، أحدُ أبرز مطوّريها، بأن مفهومه عن النظام-العالم ينبغي أن يُفهم في إطار هذا المنظور.

---

1 أعبّر عن تقديري للملاحظات والتعقيبات على مسوّدة هذه الدراسة التي تفضّل بها كلٌّ من عبد النور بن عنتر وشهرزاد خيّر وأحمد قاسم حسين، فضلًا عن المُحَكِّمَيْن المُغْفَلَةِ هويتُهما. وأتحمّل وحدي مسؤولية أيّ قصور وارد في النص. وأشكر أيضًا مايكل سْكُوت على ملاحظته القيّمة على عنوانها باللغة الإنكليزية.

2 Daniel W. Drezner, "The Song Remains the Same: International Relations after COVID-19," *International Organization*, vol. 74, no. S1 (December 2020), p. E18, accessed on 27/6/2021, at: https://bit.ly/3A5ries

3 لا شك في أن الصدارة يحتلها، قبل هؤلاء أو أولئك، الأطباءُ وعلماءُ البيولوجيا في المقام الأول. غير أن منابر الإعلام، بمختلف روافده، شهدت هرجًا اختلط فيه حابلُ المتخصصين في الفيروسات يتحدثون عن السياسة والاقتصاد، بنابلِ غير المتخصصين في الفيروسات يتحدثون عن أصل الجائحة ومواقيت انحسارها.

4 أشار أحد مُحكِّمَيْ هذه الدراسة إلى أن "هذا أمرٌ مبالغٌ فيه"، وحاجّ بأن "المسألة طبيةٌ وعلميةٌ في جوهرها قبل أن تكون لها أبعاد سياسية واقتصادية، فلو تمكّنت مثلًا المخابر من توفير لقاح يقضي على الجائحة [في بداياتها]، لما ثار هذا النقاش كله". وإنه لَمُصيب في ذلك. لكن الدراسة تخاطب الظاهرة كما هي عليه، لا كما كانت لتكون عليه لو حدث ذلك؛ فما دام المرض تحوّل إلى وباء فجائحة، وطالما أن هذه الأخيرة أحدثت من الآثار السياسية والاقتصادية ما أحدثت، فلا مناص من البحث فيها بوصفها ظاهرة متعددة الأبعاد، أو لِنَقُلْ معقدة، مثلما سيتجلّى في هذه الدراسة.

5 لا تفحص هذه الدراسة أيًّا من هذه الحقول المعرفية الفرعية، إنما تركز اهتمامها على حقل العلاقات الدولية. ولا ينفي هذا أن حقولًا فرعية عدة (سـ)تشهد نقاشات مكثفةً حول ما تعنيه جائحة كورونا بالنسبة إلى برامجها البحثية المختلفة، خصوصًا الدراسات الأمنية (والاستراتيجية) والاقتصاد السياسي الدولي والمؤسسات الدولية والاندماج الإقليمي وتحليل النزاعات. وفي هذا السياق، تُقدّم شهرزاد خيّر، مساهمةً مميزة عن حقل الاقتصاد السياسي الدولي. ينظر في هذا العدد: شهرزاد خيّر، "الاقتصاد السياسي الدولي وجائحة كورونا: تأملات نظرية ومساءلات مبكرة"، **سياسات عربية**، العدد 50 (أيار/ مايو 2021)، ص 58-85. لكن هذا لا ينفي في نهاية المطاف أن هذه الأسس النظرية لهذه الحقول المعرفية الفرعية تستند إلى النظريات والنقاشات النظرية نفسها التي يقوم عليها حقل العلاقات الدولية.

6 لا تقع هذه الدراسة ضمن حقل إبستيمولوجيا نظريات العلاقات الدولية؛ لذلك، فهي لا تشتبك مع الإشكاليات الإبستيمولوجية التي تطرحها مثلًا تسمية البنائية والتعقد نظريتيْن في العلاقات الدولية، أو التي يثيرها تصنيف البنائية ضمن الاتجاه السائد من دون الالتفات إلى تنويعاتها العقلانية والتأملية/ النقدية.

أستخدمُ الأمثولةَ الدارجةَ، المنسوبةَ إلى السيّد المسيح (عليه السلام)، حين قال ما معناه: "لا تَضَعَنَّ نبيذًا جديدًا في قنانٍ عتيقة، وإلّا تصدعت القناني، وتسرَّب النبيذُ؛ ولكن، ضعِ النبيذَ الجديدَ في قنانٍ جديدة، فتستبقيهما معًا" (لوقا، الفصل 5: 33). إنها كنايةٌ، آمُلُ أن تُفصح عن فرضية هذا البحث. وأفترض أن النظريات الثلاث السائدة (الواقعية والليبرالية والبنائية)، خصوصًا مع حداثة جائحة كورونا، لا تقدّم سوى المزيد من الشيء نفسه. لذلك، تشبه أفكارها بشأن الجائحة "الأنبذة المُعَتَّقة"، يُعبّئُها أصحابها في "قنانٍ جديدة". وفي حين أحاجّ بأن نظرية التعقّد - ولأن إقحامها في حقل العلاقات الدولية لا يزال مشروعًا في مراحله المبكرة مقارنةً بالنظريات الأخرى - إنما تشبه "نبيذًا لمّا يُعتّقْ". وأستخدم "لمّا" في هذه العبارة بصفتها أداةً نافيةً تجزم الفعل المضارع وتقلبه إلى فعل ماضٍ ممتدّ حتى وقت الحديث، مع توقّع حدوثه في المستقبل القريب[7]. وأزعم أن هذا المعنى ينطبق تمامًا على نظرية التعقّد، خاصة إذا أخذنا في الحسبان النمو المتزايد الذي تعرفه الأدبيات المنشورة التي توظف هذه النظرية، سواء في حقل العلاقات الدولية أم في غيره من حقول المعرفة الاجتماعية[8]. وبناءً على ما سبق، تنتظم مباحث هذه الدراسة في مبحثين أساسيين.

7 "تعريف ومعنى لمّا"، **معجم المعاني**، شوهد في 2021/2/8، في: https://bit.ly/37cO7jD

8 للاطلاع على مسح لأبرز هذه الأدبيات في حقل العلاقات الدولية، ينظر: محمد حمشي، "نظرية التعقد والنقاش النظري الخامس في حقل العلاقات الدولية: مراجعة للأدبيات"، **المجلة الجزائرية للأمن والتنمية**، العدد 7 (كانون الثاني/ يناير 2018)؛ وفي خريف 2020، نشرت مجلة **الألفية: دورية الدراسات الدولية** *Millennium: Journal of International Studies* مجموعة خاصة من الأوراق، تناقش ما صار يُعرف بحقل العلاقات الدولية الكمومي/ الكوانتي quantum IR في كتاب لورا زانوتي، **التشابكات الأنطولوجية والفاعلية والأخلاق في العلاقات الدولية**:

Laura Zanotti, *Ontological Entanglements, Agency, and Ethics in International Relations: Exploring the Crossroads* (London: Routledge, 2018), p. 156.

وإقحامُ مفاهيم فيزياء الكوانتوم وافتراضاتها واستبصاراتها في حقل العلاقات الدولية، يُعَدُّ جوهر مشروع نظرية التعقد في العلاقات الدولية. ينظر:

Michael P.A. Murphy, "Forum on Laura Zanotti, Ontological Entanglements, Agency, and Ethics in International Relations: Exploring the Crossroads (Routledge, 2019)," *Millennium: Journal of International Studies*, vol. 49, no. 1 (2020), pp. 117-125; Laura Sjoberg, "Quantum Ambivalence," *Millennium: Journal of International Studies*, vol. 49, no. 1 (2020), pp. 126-139; Elisabeth Prügl, "The Gender Thing: Apparatuses and Intra-Agential Ethos," *Millennium: Journal of International Studies*, vol. 49, no. 1 (2020), pp. 140-150; Sengül Yıldız-Alanbay, "The Matter of Affect in the Quantum Universe," *Millennium: Journal of International Studies*, vol. 49, no. 1 (2020), pp. 151-161; Chris McIntosh, "Writing Quantum Entanglement into International Relations," *Millennium: Journal of International Studies*, vol. 49, no. 1 (2020), pp. 162-174; Michael P.A. Murphy, "Quantising Post-critique: Entangled Ontologies and Critical International Relations," *Millennium: Journal of International Studies*, vol. 49, no. 1 (2020), pp. 175-185; Laura Zanotti, "A Response to the *Millennium* Forum," *Millennium: Journal of International Studies*, vol. 49, no. 1 (2020), pp. 186-193.

في الاتجاه نفسه أيضًا، ينظر حديثًا:

Chengxin Pan, "Enfolding wholes in Parts: Quantum Holography and International Relations," *European Journal of International Relations*, vol. 26, no. S1 (2020).

يناقش الأول الطرائق التي يمكن أن تفكر بها النظريات الثلاث السائدة في جائحة كورونا؛ في حين يناقش الثاني ما تُدلي به نظرية التعقّد.

أولًا: نظريات العلاقات الدولية السائدة وجائحة كورونا: أنبذةٌ معتّقة في قنانٍ جديدة

يناقش هذا المبحث ما يمكن أن تقدمه نظريات العلاقات الدولية المهيمنة على الحقل من تفسيرات و/ أو فهوم، للتفكير في تفشّي جائحة كورونا. وأنطلق ها هنا من افتراض مفاده أن هذه النظريات، وبسبب حداثة الجائحة، تقدّم المزيد من الشيء نفسه، وأن الوقت لمّا يسمحْ للقيام بتأمل ذاتيّ كافٍ لمراجعة ما يمكن مراجعته في أطروحاتها الأساسية بشأن الموضوع، هذا إن كانت (كلُّها أو بعضُها) ستفعل ذلك[9]. ويتناول هذا المبحث أيضًا النظريات الرئيسة السائدة في الحقل المعرفي: الواقعية والليبرالية والبنائية[10]. ولأوَضِّحْ مسألة أساسية من البداية؛ إن الوقت لا يزال مبكرًا لقراءة إسهامات هذه النظريات، وباستثناء النزر اليسير مما نُشِر في الدوريات المُحكّمة المتخصصة في العلاقات الدولية، ما يبقى بين أيدينا لا يتعدّى تأملات نظرية لمّا تنضج. لذلك، فإن ما تقدمه هذه الدراسة لا يتجاوز حدود هذه التأملات.

1. الواقعية

تفترض الواقعية، على اختلاف تنويعاتها، أن السياسة الدولية صراعٌ بين دول تعتمد على نفسها ضمن نظام دولي فوضوي البنية، يترتب

9 من شأن مسح سريع لأبرز الدوريات المحكمة المتخصصة في حقل نظريات العلاقات الدولية، إلى نهاية عام 2020، أن يشي بهذا؛ باستثناء العدد الخاص المخصص للجائحة الذي نشرته دورية **التنظيم الدولي** *International Organization*، الذي تضمن مجموعةَ مقالات لا تبدو مشحونةً نظريًا Theory-laden، ينظر:

International Organization, vol. 74, no. S1 (December 2020), accessed on 8/2/2021, at: https://bit.ly/3wDUqqA

باستثناء مقالة روث ديرموند عن الواقعية في زمن الجائحة، ينظر:

Ruth Deyermond, "Eppur si muove: Realism in the Age of Pandemic," *New Perspective*, vol. 28, no. 4 (2020), pp. 486-490.

ثمة أيضًا عدد معتبر من أوراق تحليل السياسات غير المشحونة نظريًا أيضًا، التي نشرت في عام 2020، وكتبَ بعضَها منظرون من مختلف الاتجاهات النظرية السائدة في الحقل، ويمكن الاطلاع على عشرات الأوراق المُتاحة على موقع مجلس العلاقات الخارجية، ينظر:

"Peace, Conflict, and COVID-19," The Center for Preventive Action, Council on Foreign Relations, 18/8/2020, accessed on 8/2/2021, at: https://on.cfr.org/3pj0P6K

10 لا أحيل بصورة مفصلة إلى المصادر حين أعرض الافتراضات الأساسية التي تقوم عليها هذه النظريات. وما على القارئ الذي يودّ الاستزادة إلّا العودة، على سبيل المثال لا الحصر، إلى: تيم دان وميليا كوركي وستيف سميث (محررون)، **نظريات العلاقات الدولية: التخصص والتنوع**، ترجمة ديما الخضرا، سلسلة ترجمان (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016).

عليه تنافس دائم من أجل تعظيم القوة والمصلحة الذاتية؛ كما تفترض، من جهة أخرى، أن الهدف الأسمى للدول، في بيئة كهذه، هو الأمن والبقاء، على اختلاف مواقعها وخصائصها (ويُدرج ضمن ذلك افتراض آخر مفاده أن الدول الأصغر/ الأضعف قد تختلف من حيث الأدوات، لكنها لا تختلف من حيث الأهداف؛ إذ تسعى بدورها، من خلال استراتيجيات موازنة الدول الأقوى أو مسايرتها أو اللحاق بركبها، لصون أمنها وبقائها. إن الدولة، بحسب الواقعيين، هي الفاعل المرجعي، إن لم يكن الوحيد، في "تحليل" العلاقات الدولية، وهي أهمُّ من الفواعل الأخرى، بما في ذلك المؤسسات الدولية. وفي حال التناغم بين سلوك الدول وقواعد المؤسسات الدولية ومعاييرها، فإن سبب هذا التناغم لا يعود إلى قوة تأثير المؤسسات وقدرتها على ضبط سلوك الدول، إنما يعود أساسًا إلى وجود تطابق عارض بين قواعد ومعايير المؤسسات الدولية وبين مصالح الدول. لذلك، تُنشئ الدول المؤسسات، أو تنضمُّ إليها، أو تشجّعُها، أو تعوقها عن أداء وظائفها، أو تتنكرُ لها وتنسحبُ منها بحسب ما تُمليه مصالحُها.

يعجّ تاريخ العلاقات الدولية، القريبُ والبعيدُ، بالأسانيد التي تؤكد هذه الفرضية، بدءًا بانسحاب ألمانيا وإيطاليا من عصبة الأمم قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، مرورًا باستمرار رفض الولايات المتحدة الأميركية الانضمام إلى المحكمة الجنائية الدولية، أو التصديق على بروتوكول كيوتو الملحق باتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ، وصولًا إلى استمرار رفض إسرائيل الانضمام إلى الوكالة الدولية للطاقة الذرية؛ وما قرار الولايات المتحدة، تحت رئاسة دونالد ترامب (2017-2021)، الانسحاب من منظمة الصحة العالمية بِبَعيد، حيث سعى ترامب لتقويض شرعيتها، متّهمًا إيّاها بالتواطؤ مع الصين وعدم نشر معلومات دقيقة عن حقيقة الوباء في أثر ظهوره في مدينة ووهان، في الوقت الذي كان العالم يتطلّع إلى الدور الذي يمكن أن تقوم به هذه المنظمة في مواجهة الجائحة، بوصفها الفاعل الأساسي في حوكمة الصحة العالمية. لكن تسييس منظمة الصحة العالمية لم يقتصر على الولايات المتحدة؛ إذ يبدو أن الصين بدورها ضغطت عليها للإبقاء على تايوان مجردة، ليس من عضويتها في المنظمة فحسب، ما يعني حرمانها من البيانات المتعلقة بالوباء، ولكن أيضًا لتجاهل تجربتها الفعالة في احتواء الجائحة بتدابيرَ أقلَّ تشددًا من تلك التي اعتمدتها الصين.

تزعم الواقعية أنها وحدها القادرة على تفسير فشل التعاون الدولي لمواجهة الجائحة وانكفاء الدول على نفسها عبر سياسات غلق الحدود وعودة سياسة التنافس الدولي العدوانية والسياسات الحمائية وغيرها. وما من شك في أن الواقعيين احتفوا أيّما احتفاء بافتراضاتهم التي كانت صحتُها تتأكد يومًا بعد يوم، في الوقت الذي شعر الجميع بالدهشة، وبشيء من خيبة الأمل، وهم يتابعون انهيار معايير التعاون/ التضامن الإقليمي التي قام عليها الاتحاد الأوروبي؛ فبمجرد أن طلبت إيطاليا يد العون من جيرانها الأوروبيين، وهي ترزح تحت وطأة الجائحة، أملًا في تزويدها بالإمدادات الطبية الضرورية، لم تتلقَ سوى الإجابة التي ما توقَّعَ الواقعيون غيرَها: نفسِي نفسِي![11] فما كان من جيرانها إلّا أن أجهزوا على مبدأ السوق المشتركة، فضلًا عن روح التضامن الأوروبي، وفرضوا سياسات حظر على صادرات المعدات الطبية (غير أن هذا لا يعني أن إيطاليا لم تُيمّم وجهها شطر الصين للحصول على المساعدة، مثلما فعلت دول أخرى عديدة، أوروبية وغير أوروبية[12]).

وفي هذا السياق، يتساءل راجيش باسرر وفريدريك كليم: "إذا لم يكن من شأن أزمة عالمية حادة وعابرة الحدود [مثل هذه] أن تُحفّز التعاون الدولي، فما الذي يمكنه ذلك؟ وتذكّرنا الواقعية أن قلة الثقة المتأصلة بنظام دوليّ فوضويّ، تدفع الدول نحو التردّد في التخلّي عن غريزة الاعتماد على النفس والالتزام بقواعد ألعاب حصيلتُها صفرية، حتى في خضمّ تحدٍّ عالميّ مشترك"[13].

ثمة فكرةٌ شائعةٌ بين دارسي العلاقات الدولية، فحواها أنَّ الواقعية تتجاهل الأوبئة في السياسة الدولية. هذه الفكرة الشائعة صحيحة، لكن نسبيًا فحسب؛ لأن الأمر يقتصر على تصنيف راسخ للتهديدات التي تتربص بأمن الدولة وبقائها، إذ تحصرها الأدبيات الواقعية عمومًا في التهديدات التقليدية، العسكرية والدولتية المصدر. ومع ذلك، ينبغي أن نتذكر أن ثيوسيديدز Thucydides الذي كتب أُولى النصوص التاريخية المؤسِسة للتقليد الواقعي في العلاقات الدولية **تاريخ الحروب البيلوبونيزية** History of the Peloponnesian War، سبق وأن ناقش أثر الوباء الذي اجتاح أثينا في تقويض قوّتها، ما جعلها تخسر الحرب ضد إسبرطة في نهاية المطاف[14]. ولعل ما أنجزه مارك دينن في أطروحته لنيل درجة الدكتوراه، "التهديد الوبائي: إعادة ترسيخ فائدة الواقعية الكلاسيكية لدى هانس مورغنثاو في

11 أستعمل هذه العبارة دلالة على سياسة الاعتماد على النفس Self-help التي يشدد عليها الواقعيون.

12 ينظر: "وباء كورونا: هل تنجح الصين في تقديم نفسها كمنقذ للعالم؟"، **دويتشه فيله**، 2020/3/24، شوهد في 2021/2/8، في: https://bit.ly/2LKHP3g

13 Rajesh Basrur & Frederick Kliem, "Covid-19 and International Cooperation: IR Paradigms at Odds," *SN Social Science*, vol. 1, no. 1 (2021), p. 4.

14 Stephen M. Walt, "The Realist's Guide to the Coronavirus outbreak," *Foreign Policy*, 9/3/2020, accessed on 2/8/2020, at: https://bit.ly/2Z0JQeC

العلاقات الدولية"[15]، يُعدّ عملًا فارقًا من حيث إلقاؤه الضوء على آثار تفشّي الأوبئة في قوة الدولة وأمنها وبقائها، معيدًا بذلك الاعتبار إلى أطروحات ثيوسيديدز بعد أن غيّبتها الواقعية المتأخرة، بمختلف تنويعاتها.

2. الليبرالية

تنافح الليبرالية، خاصة لمّا يتعلق الأمر بالمؤسساتية الليبرالية، بأن المؤسسات تظل مهمة في العلاقات الدولية، لأنها تساعد الدول على الأقل في ثلاثة مساعٍ أساسية، هي: التغلب على معوّقات العمل الجماعي، وخفض تكاليف الصفقات، ومعالجة مشكلات الوصول إلى المعلومات، ومن ثم تسهيل عملية بناء الثقة، وخاصة أن شح المعلومات أو عدم توافرها يضخّم الريبة حيال نيّات الآخر. فالاعتمادُ المتبادل، المعقدُ والمتزايدُ، بين الدول، يساهمُ في ظهور تحديات مشتركة لا يمكن أن تعالجها الدول منفردةً، وهو ما يدفعها إلى البحث عن ترتيبات لتنسيق جهودها من أجل اتخاذ الخطوات الملائمة لمواجهة تلك التحديات.

لذلك، تساهم المؤسسات الدولية في تذليل العقبات التي تحدّ من العمل الجماعي. وفضلًا عن ذلك، تُقلّص من مستويات اللايقين؛ إذ بدلًا من أن تستمر الدولة في النظر بعين الريبة إلى ما قد تُقدْم عليه الدولُ الأخرى، يمكن أن تساعد المؤسسات الدولية في التخفيف من حدّة الشكوك المتبادلة بينها. وإذا كانت الدول تواجه تحديات عالمية متزايدةَ التعقّد، فإن، من شأن، المؤسسات الدولية أن توفر لها فرصة لتجاوز المفاوضات المحدودة الأطراف والمسائل المتفاوض بشأنها، التي تتسم بتكاليف مادية مرتفعة، فضلًا عن التكاليف المرتبطة بالوقت. لذلك، تساهم المؤسسات في تقليص تكاليف الصفقات والاتفاقات عبر العمل المتعدد الأطراف، فضلًا عن توفير آليات للرقابة من شأنها أن تُتيح للدول إمكان التحقق من مدى التزام الدول الأخرى المتعاقدة معها بتنفيذ بنود الصفقات والاتفاقات. ومن جهة أخرى، تساهم المؤسسات الدولية في التخفيف من حدّة التفاوت في قدرات الدول في الوصول إلى المعلومات التي من المفترض أن توفّرها هذه المؤسسات.

بطبيعة الحال، ليست كل المؤسسات الدولية قادرة على الوفاء بكل هذه الوعود؛ وحين تكون قادرة، فهي لا تكون كذلك في كل المجالات، وفي كل الأوقات. غير أن من شأن الإنجازات التي تحققت في مجال مأسسة العلاقات الدولية في أثناء العقود الأخيرة، أن تؤكد صدقية افتراضات الليبراليين؛ خاصة إذا ما استحضرنا مفهوم الاعتماد المتبادل. وبحسب الليبراليين، كلما زاد ارتباطُ الدول بعضها ببعض Interrelatedness، واعتمادُ بعضها على بعض Interdependence، زادت نزعتها إلى التعاون، وإلا كلّفتها التحديات الناجمة عن الاعتماد المتبادل تكاليف باهظة إذا ما انتهجت سياسة الاعتماد على النفس. وقد أدت العولمة، على النحو المعروف، إلى نموّ شبكات معقدة من الاعتماد المتبادل بين الدول. والاعتماد المتبادل هو مفهومٌ يصف حالةً تكون فيها تكاليف فكّ الارتباط بين الدول، أو خفض التبادلات بينها، أعلى بكثير من تكاليف الإبقاء عليها. وتنطوي هذه الحالة على خاصيتين أساسيتين: الحساسية والانكشاف؛ حساسية الدولة/ الدول للتغيرات (المقصودة) التي تُحدِثها دولة/ دول أخرى في مجالات معينة، وانكشاف الدولة/ الدول أمام الاضطرابات (الطارئة) التي تَحدُث في دولة/ دول أخرى. والآن، توفر لنا جائحة كورونا نموذجًا مثاليًا لاختبار هذا المفهوم.

من شأن تفشّي الأوبئة – تزيدُ من حدّته العولمةُ على النحو المعروف – أن يدفع الدول نحو التعاون للحدّ من تفشيها والسيطرة عليها. إنها مسألة عقلانية بحتة؛ فتكاليف تفشّي الأوبئة على الأمن والاقتصاد العالميَّين ومكاسب العمل الدولي المشترك، تجعل الدول تختار البديل العقلاني الأنسب. وحين يُطرح السؤال لماذا لا تتعاون الدول باستمرار؟ سؤالٌ يستند إلى شواهد من أزمة جائحة كورونا، حيث عرف التعاون الدولي مستوياتٍ متدنيةً جدًا – وصل إلى العدم في فترات ومجالات معينة، يأتي جواب الليبراليين: إن "الاعتمادَ المتبادلَ لا يُنتِج التعاونَ بشكل تلقائي. فالدول لا تتعاون إلّا حين يعني انهيارُ الاعتماد المتبادل احتمالَ وقوع كارثة حادة". فعلى سبيل المثال، "حين تصير الدول النووية على وشك الانزلاق نحو الحرب، فإنها تنخرط في تعاون ضمني، متوخيّةً الحذر الشديد، وغالبًا ما تسعى لتسوية صريحة عبر المحادثات، مثلما كانت الحال في أزمات الحرب الباردة. ومع ذلك، فهي لا تكفّ عن التنافس، وتستمر في سباق التسلح وبناء التحالفات"[16].

ويسري المنطق نفسه على حالة الاستثناء التي عرفتها فترة ذروة تفشّي جائحة كورونا، حيث إن غلق الحدود وانكفاء الدول على نفسها، ما هما إلّا عرضان طارئان Contingent لتفشي الجائحة التي ما كانت لتتفشّى بهذه السرعة، وعلى هذا النطاق إلّا بسبب تزايد الاعتماد المتبادل نفسه، لكن من غير الممكن – بحسب منطق

15 ينظر:
Mark J. Dinnen, "The Pandemic Threat: Re-establishing the Utility of Hans Morgenthau's Classical Realism for 21st Century International Relations," PhD. Dissertation, Department of International Relations, Faculty of Humanities and Social Sciences, Bond University, Queensland, 2011, accessed on 2/8/2020, at: https://bit.ly/3jwE8dR

16 Basrur & Kliem, pp. 4-5.

الليبرالية – الجزم بأنها من أعراض تراجع الاعتماد المتبادل، أو حتى العولمة في حد ذاتها. يمكن الاستعانة بمفهوم من مفاهيم علم التعقّد للإجابة عن سؤال: هل العولمة، ومن ثم الاعتماد المتبادل، عملية عكوسة Reversible؟ لقد "صارت الدول، بعد عقود طويلة من العولمة، 'أسيرةً وعالقةً' في شبكات متواشجة من الاعتماد المتبادل المعقد، ومن المرجح أنها لن تجد أمامها خيارًا آخر سوى السعي للتكيّف وتحسين موقعها ضمن بنية شبكية متزايدة التعقد غير عكوسة Irreversible، بمعنى أنه كلما تقدمت على سهم الزمن، تعاظم تعقّدها وتشابكها، ويصير من غير الممكن أن ترتد للخلف. ثم إن مفهوم الاعتماد المتبادل نفسه ينطوي على فكرة أن تكاليف فك الارتباط بين الأطراف المعتمد بعضُها على بعض تنحو باطراد إلى أن تصير أعلى بكثير من تكاليف المحافظة عليه"[17].

حتى مع تراجع التعاون الدولي إلى مستويات دنيا، تُلقي الليبرالية الضوء على أشكال أخرى من التعاون العابر للحدود، مثل التعاون غير المسبوق بين الجماعات المعرفية، المتخصصة في الوبائيات. فقد عمل العلماء من العديد من البلدان معًا لإدارة أخطار تفشّي الفيروسات منذ تفشّي مرض المتلازمة التنفسية الحادّة "سارس" SARS في عام 2002. كما أدّى تفشّي متلازمة الشرق الأوسط التنفسية "ميرس" MERS في عام 2012، إلى انبثاق شبكة علمية أُطلِق عليها "نادي السارس". وأدّى تفشي المتلازمة الأخيرة إلى تحفيز نشاط بحثي عالمي، أفضى إلى إنتاج أكثر من 880 ورقة علمية في 92 دولة بين عامي 2012 و2015. كما حفّز تفشّي فيروس كورونا أبحاثًا تعاونية عديدةً، تجاوز فيها العلماء بروتوكولات السرية والتنافس المعتادة لينخرطوا في جهود مشتركة لفهم هذه الجائحة[18]. وفي نهاية المطاف، يمكن المحاجَّة بأن التعاون العلمي بين جماعات علمية من دول عديدة ليس إلّا وجهًا من أوجه التعاون الدولي، أو أنه على الأقل جزءٌ منه؛ إذ من الواضح أن العلماء المتخصصين في الوبائيات، ولْنَضربْ مثلًا بالصينيين منهم، لن يُقْدِموا على مشاركة معارفهم ونتائج أبحاثهم حول فيروس كورونا من دون إذن من السلطات الصينية. ومن دون أن ننسى الحالات التي منحت فيها دولٌ دولًا أخرى شُحنًا مجانية من المعدات الطبية أو حصصًا مجانيةً من اللقاحات.

من جهة أخرى، وربما هو الأهم، يمكن أن تُلقي الليبراليةُ، بوصفها برنامجًا بحثيًا، مزيدًا من الضوء على العلاقة بين تراجع مستويات التعاون الدولي وصعود الشعبوية في الديمقراطيات الغربية، خاصة في الولايات المتحدة وبعض دول أوروبا[19]. في إجابته عن سؤال "لماذا اختارت القوى الكبرى سبيل التنافس، حتى وهي تواجه تحديًا عالميًا بحجم وباء [كورونا]؟"، يحاجّ نيكولاس غفوزداف بأن الأمر يتعلق بتضافر نمطين من التحولات: تحولات في السياسة الوطنية، وتحولات في السياسة الدولية؛ إذ ليس من المصادفة أن التنافس الدولي احتدم في مناخ سبق أن أرْخت عليه الشعبوية سدولها قبل ظهور الجائحة. وفي حين أن الدول استجابت لهجمات 11 أيلول/ سبتمبر باعتناق التعاون والتنسيق الدوليَّين، لأنها كانت مؤمنة بأن من شأن ذلك تعزيز مصالحها الوطنية؛ إذ شهد العقدان الماضيان تناميًا في التشكيك في هذه الفكرة وتحدّيها، خصوصًا منذ الاستفتاء على خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي وانتخاب دونالد ترامب رئيسًا للولايات المتحدة. وجاء تفشّي الجائحة ليُعزّز تلك الشكوك، ويدفع بالدول إلى التصرف على أساسها. ويقتبسُ غفوزداف من كرينجفيك ميسكوفيك قوله، "كان لدينا تنافسٌ دوليٌّ محمومٌ تُغذّيه الريبة في مجتمع دوليّ بلا ملامح Amorphous، وحين التأمت تلك الريبة بالشعبوية، زاد التنافس الدولي حُمّى على حُمّى". وإنه لَمِن اليسير ملاحظة الطرائق التي يغذي بها الخطابُ الشعبوي عن الجائحة شعورًا قوميًا زائفًا يوهم جمهوره بأن الانغلاق على الذات، والاعتماد على النفس، وإلقاء اللوم على الآخرين (دولًا ومنظمات دوليةً) و/ أو اتهامهم بالتآمر، من شأن ذلك أن يُعزّز قدرة الـ "أنا" على البقاء والصمود، فالتعافي أسرع من "الآخر"، وأن من شأن الوباء أن يُضعِف هذا "الآخر" ويُقوّض قدرته على المنافسة، اقتصاديًا وجيوسياسيًا[20].

أخيرًا، وغير بعيد عما سبق، يمكن الليبرالية – وينبغي لها – أن تتأمل مليًّا في التحديات غير المسبوقة التي فرضتها الجائحة على الديمقراطية ومستقبَلاتها في الدول الديمقراطية، وفي تلك التي تقف على الطريق نحو التحول إلى الديمقراطية، وفي الدول اللاديمقراطية. ويتطلّب هذا التأمل بحثًا مقارِنًا في استجابات الدول وسياساتها المتباينة لمواجهة تفشّي الجائحة وكيف تؤثر في الديمقراطية؛ نظرية

17 محمد حمشي، "عن إمكانية التنبؤ زمن جائحة كورونا: تأملاتٌ من علم التعقّد"، **تحليل سياسات**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2020/6/22، شوهد في 2021/2/8، في: https://bit.ly/2Z4qAgv

18 Basrur & Kliem, p. 5.

19 عن مفهوم الشعبوية، يُنظر: كاس موده وكريستوبل روفيرا كالتواسر، **مقدمة مختصرة في الشعبوية**، ترجمة سعيد بكار ومحمد بكار، سلسلة ترجمان (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2020)؛ عزمي بشارة، **في الإجابة عن سؤال ما الشعبوية** (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019)؛ عزمي بشارة، "الشعبوية والأزمة الدائمة للديمقراطية"، **سياسات عربية**، العدد 40 (أيلول/ سبتمبر 2019)؛ ويُنظر أيضًا في هذا العدد: عبد الكريم أمنكاي، "شعبويو السلطة وجائحة كورونا: بين اعتيادية التدابير وخصوصية الخطاب، حالة الولايات المتحدة تحت إدارة دونالد ترامب"، **سياسات عربية**، العدد 50 (أيار/ مايو 2021) ص 86-107.

20 Nikolas Gvosdev, "Why the Pandemic Has Revived Hard-Nosed Realism," *World Politics Review*, 8/9/2020, accessed on 8/2/2021, at: https://bit.ly/3p9S92y

وممارسة[21]، ويشمل ذلك بلا شك الحدود التي تفصل بين الممارسات التنفيذية الصارمة لمواجهة تفشي الأوبئة والممارسات السلطوية. وثمة مسائل أخرى عديدة ينبغي لليبرالية أن تشتبك بها لفهم الجائحة، أبرزها الروابط العابرة للحدود بين الاحتجاجات – يُغذّيها خطابٌ شعبويٌّ معادٍ للعلم[22] – ضد إجراءات الحجر الصحي لمواجهة تفشّي الجائحة، ولماذا تتباين حدّتها بين الديمقراطيات الغربية وبعض الديمقراطيات الآسيوية على سبيل المثال؟ إضافة إلى العلاقة بين تفشي الجائحة وتعزيز السلطوية وتداعياتها على حقوق الإنسان وحرياته.

3. البنائية

تُشدِّد البنائية على أهمية الهويات والعوامل المتعلقة بالأفكار Ideational Factors في تشكيل مصالح الدول وسلوكها في السياسة الدولية. ومن هذا المنظور، تُحدّد الدول استجاباتها لتفشّي الجائحة من خلال الطرائق التي تفكر بها بشأن الأولويات التي يجب عليها الالتزام بها في مثل هذا الوضع. وتحاجّ البنائية بأن إمكانات التعاون ليست مُقيّدة بشروط بنية النظام الدولي الفوضوية التي تتعايش فيها الدول، مثلما يذهب إليه الواقعيون، لكنها تتحدّد من خلال ما يُفكر فيه الفاعلون حول ما هو ممكن، وما هو غير ممكن في مثل هذا الظرف. واستنادًا إلى مقولة ألكسندر فيندت المأثورة: "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها"[23]، فإن الافتقار إلى العمل الجماعي لمواجهة الجائحة ليس نتيجة حتمية لواقع ماديّ معطى تتّصف به بنية النظام الدولي (الفوضى والاعتماد على النفس)، لكنه ناشئ من بنية تُحدّدها فهوم الفاعلين وأفكارهم عن العالم، وعن أنفسهم، وعن غيرهم من الفاعلين الآخرين.

إن الأفكار، في المنطق البنائي، ليست ذات طبيعة فردية أو ذاتية، لكنها قد تكون، وحين يتعلق الأمر بالسياسة الدولية فهي ذات طبيعة جماعية أو بينذاتية Intersubjective. وتتميز الأفكار الجماعية بأنها نتاجٌ لتفاعل مستمر ومكثف بين مجموع الأفكار الفردية. ومن هنا تأتي الحجة التي يستند إليها البنائيون القائلة إن هويات الفاعلين هي التي تعمل على تشكيل مصالحهم وإعادة تشكيلها؛ إذ من الواضح أن المصالح تتغير بتغيّر الهويات، وتتغيّر الهويات بتغيّر سياقات ومخرجات التفاعل المستمر والمكثف بين الأفكار والتصورات والفهوم الفردية المنتِجة للهويات. وهو ما ينقض افتراض الواقعيين القائل إن الدول جميعها أنانية وعقلانية وتعتمد على نفسها في تحقيق مصالحَ محددة سلفًا. وهذا، أيضًا، ما يُفسّر التحول في الهوية (دولة عدوانية تتحول إلى دولة مسالمة) والتعدد في الهوية (دولة تتعدد أنماطُ هويتها بتعدد الآخر الذي تتفاعل معه). غير أن الأهم من ذلك يكمن في قدرة البنائية، من خلال نقدها التقليدي للأطروحات الواقعية، على توسيع مساحة التغيير في سلوك الفاعلين بتغير تصوراتهم وأفكارهم وهوياتهم بعضهم حيال بعض. لذلك، لمَّا يتعلق الأمر بالإجابة عن سؤال لماذا تفشل الدول في التعاون، على الرغم من الحاجة الملحة إلى ذلك في ظل تفشي جائحة كورونا؟ فإن البنائية تواجهنا بواقع أن الدول مُثقَلةٌ بفكرة لا جدال فيها، مفادها أن المصلحة الذاتية والاعتماد على النفس يجب أن يأتيا أولًا. لذلك، تتطلّب استعادة زمام التعاون الدولي تغيرًا في البنية المتعلقة بالأفكار Ideational Structure، لا تغيرًا في البنية المادية Material Structure.

يمكن أن تتعامل البنائية مع سؤال "كيف يمكن أن يُغيّر الوباء، أو يُعزّز، الفهوم والأفكار التي تتبنّاها الدول بشأن العولمة؟"[24]. وتوفر فرصة للتأمل في دور الخطاب والتغيّر في الخطاب بشأن العولمة في تغيير اتجاهاتها على المدى الطويل، مثلما يحدث مع دعوات تعزيز جاهزية Preparedness القطاعات الصحية الوطنية وإصلاح نظام حوكمة الصحة العالمية، ومثلما يحدث أيضًا مع النقاش بشأن تعزيز مطواعية Resilience الاقتصادات الوطنية والنظام الاقتصادي الدولي حيال سلاسل القيمة العالمية. تنافح البنائية عن أهمية قوة الخطاب في إنتاج وإعادة إنتاج المعاني البينذاتية المتشارَكة بين

21 ينظر العدد الخاص من دورية **النظرية الديمقراطية** الذي يناقش موضوع "الديمقراطية في زمن جائحة كوفيد-19"، في:
Afsoun Afsahi et al., "Special Issue: Democracy in the Time of COVID-19," *Democratic Theory*, vol. 7, no. 2 (2020);
يُنظر أيضًا ورقة العمل التي نشرتها كلية بلافاتنيك للإدارة الحكومية، جامعة أوكسفورد، عن "تنوع الاستجابات الحكومية لجائحة كوفيد-19" عبر 150 دولة، في:
Thomas Hale et al., "Variation in Government Responses to COVID-19," *BSG Working Paper Series*, no. 32, University of Oxford (May 2020), accessed on 8/2/2021, at: https://bit.ly/2NhQ0V0

22 يرفض هذا الخطاب الحقائق العلمية، أو يقبلها على نحو انتقائي، ما يؤثر في الاستجابة الشعبية لتدابير المواجهة التي تتخذها الحكومات. وتمثل مواقف الرئيس ترامب من مدير المعهد الوطني للحساسية والأمراض المعدية، أنتوني فاوتشي، طوال عام 2020، مثالًا لذلك. ينظر: ديبورا بروسنان وجيمس بوهلاند وأندرياس ريتشكيمر، "عقد اجتماعي جديد في ظل أزمة عالمية"، كلية السياسات العامة، جامعة حمد بن خليفة، شوهد في 2021/2/8، في: https://bit.ly/3rMxvXP؛ وللاستزادة بشأن معاداة الشعبوية للعلم، ينظر:
Clive Hamilton, "Silencing the Scientists: The Rise of Right-Wing Populism," *Our World*, 2/3/2011, accessed on 8/2/2021, at: https://bit.ly/2N0fEOr; Niels G. Mede, "'The People Have Enough of Experts!' How to Understand Populist Challenges to Science," Public Understanding of Science Blog: Science & society/ Communication, 10/6/2020, accessed on 8/2/2021, at: https://bit.ly/3pe9tDz

23 ينظر:
Alexander Wendt, "Anarchy is What States Make of it: The Social Construction of World Politics," *International Organization*, vol. 46, no. 1 (1992).

24 Thomas Rausch, "What if the Covid19 World is what States Make of it?" Bertelsmann Stiftung, 16/4/2020, accessed on 8/2/2021, at: https://bit.ly/2MKhYZZ

الفاعلين الاجتماعيين، والدفع، من ثَمَّ، نحو التغيّر؛ حيث يمكن عبر اللغة التلاعبُ بالخطاب لإنتاج معنى/ تأويل معيّن، وإسكات معنى/ تأويل ممكن آخرَ للمعطى المادي نفسه، وليكن في هذه الحالة جائحة كورونا؛ فالمعاني/ التأويلات ليست متضمنة في ما هو مادي، لكنها تُبنى ويُعاد بناؤها عبر توظيف قوة الخطاب[25].

تجلّى هذا بصورة واضحة في الخطاب الشعبوي الحاد الذي تبنّاه الرئيس ترامب[26]؛ خطابٌ قائمٌ على سياسة إلقاء اللوم على آخَر خارجيّ ويُحوّله إلى كبش فداء Scapegoating[27]، ويعجُّ بإحالات متكررة إلى فيروس كورونا باعتباره "فيروسًا صينيًّا"، وإلى منظمة الصحة العالمية باعتبارها "متواطئة" مع الصين و"مسؤولة" عن تفشي الجائحة، وأن تفشّيها لا يخلو من "مؤامرة"[28]. وسيتجلّى أيضًا في خطاب الرئيس الأميركي جو بايدن Joe Biden (2021-) حول "استعادة ريادة" الولايات المتحدة وقدرتها على "قيادة العالم" من جديد؛ إذ من المرجّح أن يجتهد في حرمان الصين من المكاسب الخطابية التي ما فتئت تحوزها منذ بداية الأزمة، حيث عملت، من خلال حزمة الصادرات الطبية إلى دول متضررة عديدة، على بناء سردية مغايرة للسردية التي روَّج لها ترامب؛ سرديةٌ قائمةٌ على قصة إيثار تروي كيف أن الدولة التي ظهر فيها الوباء، وعانت ويلاته قبل أن يتفشّى في باقي العالم، قررت بمجرد أن بدأت تلتقط أنفاسها الالتفاتَ إلى مساعدة الآخرين[29]. وتقدم هذه السرديةُ الصينَ بوصفها قوة كبرى مسؤولة عالميًّا، في مقابل انسحاب الولايات المتحدة التاريخي من موقع القيادة العالمية. ولن يؤثر ذلك في تفضيلات الولايات المتحدة نفسها حيال التعاون الدولي فحسب، بل أيضًا في تفضيلات باقي فواعل النظام الدولي. إن الجائحة معطى ماديٌّ، لكن تتباين الفهوم والمعاني والتأويلات التي يُضفيها عليها الفاعلون بتباين الخطاب، فهي تهديدٌ وشيك يدفع الدول نحو الانكفاء و"تغليب" المصلحة الذاتية وسياسة الاعتماد على النفس، مثلما هي تحدٍّ طويلُ المدى، يدفع بالدول نحو "تفضيل" التعاون – حتى وإن لم يخلُ من تنافس – تجنّبًا لانهدام أركان العولمة والاعتماد المتبادل برمّتها على رؤوس الجميع.

ثانيًا: نظريةُ تعقُّدِ السياسة العالمية: نبيذُ لَمَّا يُعتَّقْ

مع نهاية ربيع 2020، كانت جائحة كورونا تضرب الأرض طولًا وعرضًا، بعد أن بدأت فيروسًا في حيّ من أحياء مدينة صينية. ومثّل هذا المشهد فرصةً لدى الناس ليتعرّفوا إلى دلالات عبارة إدوارد لورنتز Edward Lorenz (2008-1979) التي صارت الآن على كلِ لسان تقريبًا: "هل يمكن لرفرفة جناحَي فراشة في البرازيل أن تُحدث إعصارًا في تكساس؟". غير أنّ مصطلح "أثر الفراشة" ليس مجرد استعارة لفهم المسار الذي أخذته موجة تفشّي الجائحة العالمية، أو حتى ذلك الذي أخذته موجة الثورات العربية التي بدأت بإقدام الشاب التونسي، محمد البوعزيزي، على الانتحار حرقًا في شارع من شوارع مدينة تونسية؛ إنه مفهومٌ ضمن عُدَّة من المفاهيم والنظريات التي تطورت في إطار ما يعتبره البعض "علمًا جديدًا" قائمًا في ذاته. وَلِئْن باتت عبارة "أثر الفراشة"، اليوم، جزءًا من التفكير اليومي في موضوع الجائحة، ولعلها تحولت إلى تفسير "مبتذل" تلُوكه الألسنُ دافعةً به إلى أقصى حدود البساطة الممكنة، فإنها تبقى جزءًا من علم أشدَّ ثراءً وتعقُّدًا، يُعرف، ويا للمفارقة، بعلم التعقُّد Complexity Science.

1. التعقُّد والأنظمة المعقّدة والحياة العالمية

سواءٌ اعتُبِر نظريةً أم فلسفةً أم علمًا قائمًا في ذاته؛ فالتعقُّد مجالٌ بحثيٌّ عابر للتخصصات/ متعدّدُ التخصصات، يضم طيفًا واسعًا منها، إذ يمكن أن يعثر المرء على أعمال فلاسفة وفيزيائيين وخبراء الكومبيوتر وعلماء الاجتماع، فضلًا عن باحثي العلاقات الدولية[30]. لكن الأمر لا يتوقف عند هؤلاء، فلدى علماء الرياضيات والأحياء والطقس أيضًا إسهامات مؤسِسة ومطوِرة لهذه النظرية. وتجعل هذه

25 Ganjar Nugroho, "Constructivism and International Relations Theories," *Global & Strategies*, vol. 2, no. 1 (January 2008), p. 92.

26 حول خطاب الرئيس ترامب الشعبوي زمن جائحة كورونا، ينظر في هذا العدد: أمنكاي.

27 عن سياسة إلقاء اللوم، ينظر:
Bernadette Nadya Jaworsky & Runya Qiaoan, "The Politics of Blaming: The Narrative Battle between China and the US over COVID-19," *Journal of Chinese Political Science*, vol. 25, no. 4 (2020).

28 يعزو أحد مُحكّمَيْ هذه الدراسة وضعَ منظمة الصحة العالمية في قفص الاتهام، واستهدافَها من الشعبويين وأنصار نظرية المؤامرة، إلى غياب خطاب متزن بشأن ما لهذه المنظمة وما عليها؛ لأن استهجان تحميلها مسؤولية "كل شيء" لا يعني أنها لا تتحمل قسطًا من المسؤولية عما حدث. وتلك ملاحظة وجيهة لا بد من التنويه بها.

29 في السياق نفسه، يلفت أحد مُحكّمَيْ هذه الدراسة نظرنا إلى أن الجائحة سمحت بظهور حركية في السرديات، سرديـاتٌ وسرديـاتٌ مضادة؛ ما يعني أن مجالَيْ التنافس والتعاون دوليًا سيشهدان مزيدًا من الاستقطاب في ما يتعلق بالعوامل المتصلة بالأفكار Ideational Factors التي يركز عليها البنائيون، حيث تصبح السردية وما تسوّق له أهمَّ من الفعل في حدّ ذاته. فكميات الإعانات الطبية التي تبرّعت بها الصين لبعض دول الجنوب، مثلًا، لا تكاد تكفي نخب الأنظمة الحاكمة وحاشياتهم الضيقة، إلّا أن السردية تجعلها تبدو غير ذلك. وتلك ملاحظة وجيهة أخرى وجب إدراجُها هنا.

30 Dylan Kissane, "Moving Beyond Anarchy: A Complex Alternative to a Realist Assumption," PhD. Dissertation, School of International Studies, University of South Australia, Australia, 2009, p. 247.

الطبيعة العابرةُ للتخصصات/ المتعددةُ التخصصات الباحثَ أمام تحدّي - وفي الوقت نفسه فرصة - عبورِ الحدود التي تفصل بين حقول المعرفة المختلفة، وبين التقاليد البحثية (أو البَراديغمات) ضمن الحقل المعرفي نفسه. إنها، بحسب إمليان كافالسكي، حركةُ "تلاقح" دؤوبةٌ بين العلوم الطبيعية والاجتماعية[31] على حدّ سواء.

> سواءٌ اعتُبِر نظريةً أم فلسفةً أم علمًا قائمًا في ذاته؛ فالتعقُّد مجالٌ بحثيٌّ عابر للتخصصات/ متعدّدُ التخصصات، يضم طيفًا واسعًا منها، إذ يمكن أن يعثر المرء على أعمال فلاسفة وفيزيائيين وخبراء الكومبيوتر وعلماء الاجتماع، فضلًا عن باحثي العلاقات الدولية لكن الأمر لا يتوقف عند هؤلاء، فلدى علماء الرياضيات والأحياء والطقس أيضًا إسهامات مؤسِسة ومطوِرة لهذه النظرية

أقتبس هنا تعريف إدغار موران للتعقُّد بأنه "نسيجٌ من مكوّنات غير متجانسة مترابطة ارتباطًا وثيقًا، يتعذّر معه الفصل بينها [...] إنه نسيجٌ من الأحداث (الأفعال) والتفاعلات والارتدادات والتحديدات والمصادفات، التي تشكل عالمنا الظاهراتي. لكن التعقّد، في هذه الحالة، يحمل على نحو مقلق سمات الفوضى وانعدام القابلية للفصل واللانظام والغموض واللايقين"[32]. غير أن للغة أيضًا بلاغتها لَمّا يتعلق الأمرُ بالتعريفات. وإنه لَمِن توارد اللغتين العربية والإنكليزية أن نجد للمفردة الأصل نفسه تقريبًا. تأتي مفردة Complexity في اللغة الإنكليزية من المفردة اللاتينية Complexus التي تصف ما هو منسوجٌ ومحبوكٌ بعضُه ببعض Woven Together؛ أما مفردة التعقُّد في اللغة العربية، فتأتي من مفردة "عُقدة" التي تعني في صيغة الجمع العُرَى التي يُشَدُّ منها الحبل[33] فيصير غير قابل للفك؛ وتأتي أيضًا من مفردة "عَقَدَ" التي تأتي مع الزهر، فيُقال "عَقَد الزهرُ"، أي تضامّت أجزاؤه فصار ثمرًا[34]؛ ومن مفردة "تَعَقَّد" التي تأتي مع الشيء، فيُقال "تعقَّد الشيءُ"، أي تكاثَف وتراكَب بعضه فوق بعض[35]. وستتجلّى الدلالات المضمَرة في هذه المفردات عبر الفقرات اللاحقة من هذا المبحث.

يتداخل مفهوم التعقّد مع مفهوم الأنظمة المعقدة. ويمكن أن يكون هذا التداخل مفيدًا في تجنّب التورّط في إضفاء مزيد من الطابع الفلسفي على المفهوم. لذلك، غالبًا ما يُقدَّم المفهوم من دون التقيّد بتعريف مسبق للتعقّد، وذلك بفحص خصائص الأنظمة المعقدة[36]، فهي: 1. تتكوّن من عدد كبير - أحيانًا لانهائي - من العناصر التي تتآثر في ما بينها (يؤثر بعضها في بعض، وفي الوقت نفسه يتأثر بعضها ببعض)؛ 2. وهي لا تنفك تتغير، فهي بعيدة عن الاستقرار، وغيرُ قابلة للتنبؤ أو التحكم، إما لأنها محكومة بعواملَ متعددة ومتآثرة، وإما لأنها تتأثر بمؤثرات خارجية عشوائية بحكم انفتاحها على بيئتها الخارجية؛ 3. وهي تتميّز بوجود حلقات من التفاعلات (أو تفاعلات على شكل حلقات)، حيث إن نتائج أي فعل يمكن أن تنعكس على الفعل نفسه، أحيانًا على نحو مباشر، وأحيانًا بعد عدّة مراحل من التفاعل؛ 4. وتتميز التفاعلات فيها بأنها لاخطية، حيث يمكن أن تكون للأسباب الصغيرة نتائج كبيرة، والعكس؛ 5. وتتميز التفاعلات فيها أيضًا بأنها قصيرة المدى؛ 6. وهي تعمل في ظل ظروف بعيدة عن التوازن؛ 7. وهي تتميز بأن لديها شكلًا من أشكال التاريخ، وهذا التاريخ هو ما يزوّدها بالقدرة على (إعادة) بناء نفسها و(إعادة) ضبط نفسها و(إعادة) إنتاج نفسها، مثلما أنه هو ما يُمكّنها من بناء شكل من أشكال الذاكرة التي تجعلها قادرة على "التعلم" من خلال (تكرار) التجربة؛ 8. وفي الأنظمة المعقّدة، يكون النظام مختلفًا تمامًا عن مجموع عناصره المكوِّنة له، إذ من غير الممكن استنتاج خصائص نظام معقّد بمعرفة خصائص العناصر المكوِّنة له بمعزل بعضها عن بعض؛ 9. وفي الأنظمة المعقدة، يكونُ النظام دائمًا أكبر من مجموع الأجزاء/ العناصر المكوِّنة له، وهو ما يتعارض مع النزعة الاختزالية التي طغت على نظرية الأنظمة التقليدية، والتي تدّعي إمكانية فهم النظام بتفكيكه إلى العناصر الأساسية المكوّنة

31 Emilian Kavalski, "The Fifth Debate and the Emergence of Complex International Relations Theory," *Cambridge Review of International Affairs*, vol. 20, no. 3 (2007), p. 436.

32 Edgar Morin, *On Complexity*, Robin Postel (trans.) (Cresskill, NJ: Hampton Press, Inc., 2008), p. 5.

33 "عُقْدَة"، **معجم الدوحة التاريخي للغة العربية**، شوهد في 2021/2/8، في: https://bit.ly/3pgTMv7

34 "تعريف ومعنى عقد"، **معجم المعاني**، شوهد في 2021/2/8، في: https://bit.ly/3aZ2HfA

35 "تَعَقَّدَ"، **معجم الدوحة التاريخي للغة العربية**، شوهد في 2021/2/8، في: https://bit.ly/3qi9B6s

36 Paul Cilliers, *Complexity and Postmodernism: Understanding Complex Systems* (New York: Routledge, 1998), pp. 3-5.

له، وفهم العلاقات التي تربط بينها. غير أن نظرية التعقد تقدم شكلًا من التوليف بين خياري الاختزاليين الذين لا يرون سوى الأجزاء، والكلّانيِّين الذين لا يرون سوى الكلّ. وهذا ربما ما تعكسه مقولة بليز باسكال Blaise Pascal (1623–1662) الذائعة الصيت: "لا يمكنني فهم الكلّ من دون فهم الأجزاء، ولا يمكنني فهم الأجزاء من دون فهم الكلّ"[37]. لقد ناقشتُ في موضع آخر كيف تنطبق هذه الخصائص على النظام الدولي[38]، لذلك سأنتقل الآن إلى إلقاء الضوء على الكيفية التي تفكر بها نظرية التعقّد في جائحة كورونا.

> إذا كان النظام الدولي بنية مادية (مثلما يرى الواقعيون والليبراليون)، وبنية اجتماعية (مثلما يرى البنائيون)، وبنية معيارية (مثلما يرى المؤسساتيون الليبراليون)، فإنه بنية حية أيضًا تدبُّ فيها الحياة عند كلّ مستوى من مستوياتها، وفي كلّ بعد من أبعادها؛ وهذه هي الحكمة التي يمكن تعلّمها من نظرية التعقد؛ إنه نظام معقد، وشواشيٌّ، ولاخطيٌّ، وغيرُ قابل للتنبؤ، ولا يخلو من عوامل الاضطراب غير المتوقعة التي تعمل بوصفها مُحوّلات

إذا كان النظام الدولي بنية مادية (مثلما يرى الواقعيون والليبراليون)، وبنية اجتماعية (مثلما يرى البنائيون)، وبنية معيارية (مثلما يرى المؤسساتيون الليبراليون)، فإنه بنية حية أيضًا تدبُّ فيها الحياة عند كلّ مستوى من مستوياتها، وفي كلّ بعد من أبعادها؛ وهذه هي الحكمة التي يمكن تعلّمها من نظرية التعقد؛ إنه نظام معقد، وشواشيٌّ، ولاخطيٌّ، وغيرُ قابل للتنبؤ، ولا يخلو من عوامل الاضطراب غير المتوقعة التي تعمل بوصفها مُحوّلات Game-changers؛ ولا يمكن حصر هذه المُحوّلات تحديدًا، لأن التنبؤ بها غيرُ ممكن، فهي قد تتبدّى في شكل أزمات بنيوية حادّة في الاقتصاد العالمي، أو في شكل نزاعات إقليمية/ دولية تُعيد توزيع القوة العالمية؛ لكنها قد تأتي في شكل كوارث طبيعية هائلة، تفشل أنظمةُ الإنذار المبكر في رصدها، ويمكن أن تؤدي إلى انهيار حكومات قائمة في ذاتها (كأن يحلّ جفافٌ طويلٌ و/ أو انجراف حادٌّ للأتربة الصالحة للزراعة، أو أن تضرب أمواجُ تسونامي هائلة قادرة على تدمير بنى تحتية حيوية للاقتصاد العالمي، أو أن تضرب الأرضَ عواصفُ شمسيةٌ مغناطيسيةٌ قادرةٌ على إصابة الأقمار الصناعية)، مثلما يمكن أن تضرب العالم على حين غرّة في شكل أوبئة أو جائحات عالمية لا تنهك اقتصادات الدول وأنظمتها الصحية فحسب، لكنها تُهدّد أيضًا شرعية حوكمة الصحة العالمية وفاعليتها[39].

واضحٌ، إذًا، أن النظام الدولي لا يقتصر البتةَ على العلاقات بين الدول فحسب، لأن هذه الأخيرة تتعايش وتتطور على نحو مشترك مع عدد كبير من الفواعل التي توجد وتتفاعل ضمن أنظمة لا تقتصر على الأنظمة المتمحورة حول الإنسان Anthropocentric، مثل الاقتصادية، و/ أو العرقية، و/ أو الثقافية؛ لكنها تشمل أيضًا الأنظمة الطبيعية أو غير المتمحورة حول الإنسان Nonanthropocentric، مثل البيئية، و/ أو الجغرافية، و/ أو الحضرية[40]. وفي هذا السياق تحديدًا، يقترح كافالسكي مفهوم "الحياة العالمية"[41]، حيث إن "الإقرار بهذا الترابط الوثيق بين الأنظمة المتمحورة حول الإنسان والأنظمة الطبيعية، من شأنه ألّا يعرّف الحياة العالمية باعتبارها السياسة الدولية فحسب [...] إنها أكثرُ من مجرد الجماعات السياسية والكيانات polities، حيث تقيم – أي إنها لا تتعلق بما يحدث 'داخل/ خارج' الدولة، بل تتعلق أيضًا بما يحدث 'حوالَيْ' الدولة Around the State[42]. ويُفصِح المفهوم أيضًا عن أنّ 'النظام

37 Morin, p. xvi.

38 ينظر: محمد حمشي، **مدخل إلى نظرية التعقد في العلاقات الدولية** (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2021)، ص 218-233؛ محمد حمشي، "نظرية التعقد في العلاقات الدولية: النظام الدولي كنظام معقد وشواشي السلوك"، **المستقبل العربي**، السنة 42، العدد 484 (حزيران/ يونيو 2019)، ص 108-123.

39 عن هذه المحوّلات، ينظر: حمشي، "عن إمكانية التنبؤ زمن جائحة كورونا"؛ حمشي، "نظرية التعقد في العلاقات الدولية"، ص 122-123.

40 في هذا الاتجاه، يعلق كافالسكي الأمَلَ على نظرية التعقد لتدفع بحقل العلاقات الدولية بعيدًا عن نزعته المتمحورة حول الإنسان. ينظر:
Emilian Kavalski, "Inside/Outside and Around: The Emerging Complexity of Global Life," in: Emilian Kavalski (ed.), *World Politics at the Edge of Chaos* (New York: State University of New York Press, 2015), p. 4.

41 ينظر:
Ibid., pp. 1-9; Emilian Kavalski, "The Complexity of Global Security Governance: An Analytical Overview," *Global Society*, vol. 22, no. 4 (2008), pp. 423-443.
غير أن المصطلح سبق واستعمله جيمس روزنو في:
James Rosenau, "Patterned Chaos in Global Life," *International Political Science Review*, vol. 9, no. 4 (1988), pp. 335-340.

42 تحمل مفردة "حوالَي" في اللغة العربية معنى الظرف الذي يفيد الإحاطة حول الشيء (كما في نص الحديث المروي عن النبي محمد عليه السلام، "حوالَيْنا لا علينا"). ينظر: "تعريف ومعنى حوالي"، **معجم المعاني**، شوهد في 2021/2/8، في: https://bit.ly/2OvKyi1؛ أما في اللغة الإنكليزية، فتحمل مفردة Around أيضًا معنى الظرف الذي يفيد الموضع الذي يحيط بالشيء، أو الاتجاه الذي تكون فيه الحركة على طول حافة الشيء، أو من جزء إلى جزء آخرَ منه، وغالبًا من دون اتجاه أو هدف أو نظام واضح. ينظر:
"Meaning of around in English," *Cambridge Dictionary*, accessed on 8/2/2021, at: https://bit.ly/3plPnqW

الدولي' جزءٌ لا يتجزأ من ظروف بنيوية أوسعَ، ومن تفاعلات تكمن ضمن البيئة الواقعة 'حوالَيْ' العلاقات بين الدول"[43].

غير أن الأهم من ذلك يكمن في أن المفهوم يُضفي على الطبيعة خاصية الفاعلية Agency. إنه يجعل من الطبيعة (أو البيئة الحيَّة التي ينشأ ويتطور ويتفاعل فيها أيُّ نظام دولي) فاعلًا قائمًا في ذاته Agent، يمكنه أن يُحدث تأثيرًا حاسمًا مَا في العلاقات الدولية، وفي تفاعلات السياسة الدولية عمومًا[44]. ولا يتعلق الأمر بالعوامل الجغرافية والمناخية التقليدية التي يمكن أن تتسبب في تغيير مصائر أمم برمتها فحسب؛ بل يتعلق أيضًا بمختلف التفاعلات الإيكولوجية المُشَكِّلة للنظام الطبيعي في هذا العالم. وفي هذا السياق، يصير النظام الدولي جزءًا لا يتجزأ من نظام الطبيعة الأشمل بوصفه نظامًا بيولوجيًّا Biosystem، أو نظامًا إيكولوجيًّا Ecosystem، يتفاعلان ويتآثران أحدُهما مع الآخر. وهنا، يمكن أن يفكر المرء في الأوبئة، أو الكوارث الطبيعية، أو حتى الفلكية، التي يمكن أن تؤثر في كوكب الأرض برمّته[45].

43 Kavalski, "Inside/Outside and Around," p. 4.

44 يحتج أحدُ مُحكّمَي الدراسة على إضفاء صفة الفاعلية على الطبيعة، وحُجَّتُه في ذلك هي أن "الأنظمة [الطبيعية] لا معنى لها من دون علاقتها بالإنسان، فهي إما مسخَّرةٌ له، وإما خطرٌ عليه، لكن إدراك ذلك فعلٌ بشريٌّ بامتياز [...] فضلًا عن ذلك، فإن صفة الفاعلية لا بد من أن تقوم على فكرة [القصدية]، وهذا ما لا يتوفر في الأنظمة الطبيعية". ولا أملك سوى موافقته من حيث المبدأ. لكنني، تعقيبًا على ذلك، أسوق حجةً مفادها أن آثار الفِعل، حتى حين يكون الفاعل بشريًا مفعمًا بالقصدية، يمكن أن تأتي غير مقصودة، أي خلاف ما كان الفاعل يقصده قبل الإقدام على الفعل. إنها الحالة التي تترتب فيها على فعل معيَّن (ولْيكُنْ سياسيًا) نتائجُ لم تكن مقصودةً من الفاعل. المثال الأوضح هو الكيفية التي ترتَّب بها على تمويل الولايات المتحدة للمجاهدين الأفغان ضد الاتحاد السوفياتي ظهورُ حركةِ طالبان الأفغانية في عام 1994، وبعدها بنحو ست سنوات، تنظيمِ القاعدة المتورط، في هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001. وأستلهم ها هنا من ملاحظة المُحَكِّم نفسِها مثالًا آخر، فالإنسان إنما "سخّر" الطبيعة للدفع بعجلة التقدم الاقتصادي نحو الأمام، وتلك قصديتُه؛ غير أن الآثار جاءته من حيث لا يدري في شكل "أخطار" لم تكن لا مقصودة ولا مرغوبة. ومن شأن هذا أن ينفي لزوم العلاقة بين القصدية والفاعلية في السياسة (الدولية). غير أن المحاجَّة التي يقدمها أنصار نظرية التعقد إنما تذهب إلى أبعد من ذلك. إن الفعل، كي يكون فعلًا سياسيًا دوليًا أو عالميًا، يجب بالضرورة ألا يكون فوريًا أو مباشرًا؛ إذ يمكن أن يستغرق الأمر فترة زمنية غير محدودة على سهم الزمن (لِنتذكرْ هنا التأثير غير الفوري الذي تحدثه حركة جناحي الفراشة في نظرية أثر الفراشة)؛ ويجب بالضرورة ألا يكون قصديًا، حيث إن نيّات الفاعل لا تشكل أي فرق في تسمية أفعاله أفعالًا سياسيةً دولية، وحتى لو كانت نيته تقتصر على أن يكون فعله محليًا أو محدود التأثير في الآخرين، فينبغي التعامل معه باعتباره فعلًا سياسيًا دوليًا إذا كانت له تداعياتٌ غير مقصودة و/ أو غير فورية تتجاوز حدود الدولة. ويدعو أنصار نظرية التعقد إلى تضمين مجال البحث في العلاقات/ السياسة الدولية جميع الفواعل والأفعال التي يمكن أن تُنتج آثارًا تتجاوز حدود الدولة، ولو على نحو غير فوري أو غير مقصود؛ مناهضين بذلك جميع أشكال التمييز المؤسِّسة لمقاربات الاتجاه السائد، مثل التمييز بين القوى الكبرى والصغرى لدى الواقعيين، أو بين القوة الخشنة والناعمة لدى المؤسساتيين، أو بين المادي والاجتماعي لدى البنائيين، أو بين الأمن الداخلي والخارجي في الدراسات الاستراتيجية. وما التمييز بين الطبيعي والبشري إلّا شكلٌ آخر لا يقل أهمية عن الأشكال السابقة. ومن هنا تأتي قوة مفهوم "الحياة العالمية" لدى كافالسكي، السابق ذكره في المتن.

45 ينظر: حمشي، "عن إمكانية التنبؤ زمن جائحة كورونا".

في هذا السياق، حاجّ فالرشتاين بأن النظام-العالم (النظام الدولي بعبارة أخرى) غيرُ منفصل عن ديناميات النظام البيولوجي/ الإيكولوجي الأشمل، كما نبَّهَ إلى أن التقويض المطرد للقاعدة الإيكولوجية للاقتصاد - العالم (الاقتصاد العالمي بعبارة أخرى) سيكون أحد أبرز تناقضات النظام-العالم الحديث وأزماته، مشيرًا إلى أن "التأثير في بعض الميكانيزمات الإيكولوجية الوقائية، يؤدي إلى ظهور أنواع جديدة محتملة من الأمراض الوبائية المخيفة وغير المعروفة سابقًا"[46]. والآن، صارَ معروفًا لدينا أن من شأن الإفراط في القضاء على المساحات الغابية وبناء المدن والتلويث المستمر للطبيعة، تدميرَ محميات الحيوانات البرية وتعريضها للانقراض؛ فلا يبقى لها سوى اللجوء إلى ما بقي من ملاذات قريبة من المستوطنات البشرية – مثل المزارع وحدائق البيوت، ما يزيد من احتمال الاختلاط المتكرّر عن قرب مع الإنسان. وهذا ما يمنح جراثيم حميدة، تعيش طبيعيًّا في أجساد الحيوانات البرية من دون أن تسبب لها الأذى، إمكان المرور إلى أجساد البشر والتحوّل من صفتها الحميدة إلى مُمْرضات قاتلة[47].

يمكن وضع هذه الأطروحات في سياقِ تيار آخذ في النفوذ ضمن مدرسة "الحوليات" الفرنسية، التي تأثَّر بها فالرشتاين أيّما تأثُّر؛ هو التأريخ البيئي الذي يبحث في "تاريخ العلاقات بين المجتمعات الإنسانية والطبيعة برمّتها التي ارتبطت بها المجتمعات على الدوام". وضمن هذا الاتجاه، "تأتي دراسة تاريخ البيئة المادية، أي [...] دراسة التأثير البشري على الطبيعة، وكذلك أيضًا تأثير الطبيعة على النشاط البشري"؛ ومن ثم وضع "تاريخ الإنسان في سياق أوسع، سياق الأرض والحياة على الأرض"[48]. وفي هذا السياق الأوسع، لا تقتصر الفاعلية Agency على البشر، ولا على البنى المتمحورة حول البشر؛ لكن

46 Immanuel Wallerstein, *After Liberalism* (New York: The New Press, 1995), pp. 67-68.

47 سبق وبيّنت بعض الدراسات أن فيروس إيبولا "الذي تبيّن أنّ مصدره عدّة أنواع من الخفافيش، ظهر بصفة كبيرة في مناطقَ وسط وغرب أفريقيا، كانت قد تعرّضت حديثًا إلى عمليات مكثفة لإزالة الغابات". كما بيّنت دراسة أخرى "أُجريت داخل اثني عشر بلدًا، أن أصناف البعوض الناقل لمسببات الأمراض البشرية في المناطق التي أزيلت منها الغابات تمثل ضِعفَ العدد الموجود في الغابات التي ظلت على حالها". يُنظر: سونيا شاه، "ضد الأوبئة، الدفاع عن البيئة"، **لوموند ديبلوماتيك** (آذار/ مارس 2020)، شوهد في 2021/2/8، في: https://bit.ly/2VcOR1w

48 جون ماك نايل، "مشكلات التاريخ العولمي للبيئة منذ عام 1990 وآفاقه"، في: آلان كاييه وستيفان دوفوا (إشراف)، **التحول العولمي للعلوم الاجتماعية**، ترجمة جان ماجد جبور (بيروت: مؤسسة الفكر العربي، 2017)، ص 83. ويستشهد نايل بمؤرخ الإمبراطورية العثمانية، سام وايت الذي استخدم البيانات المناخية ليقترح تفسيرًا جديدًا لعمليات تمرد الجلاليّين في الأناضول إبان الثورات التي هزت الإمبراطورية العثمانية بين عامي 1595 و1610؛ مثلما يستشهد أيضًا بالمؤرخ البريطاني جوفري باركر الذي فسّر، بدوره، مجموعة من الأزمات التي هزّت العالم بين عامي 1640 و1650 استنادًا إلى عوامل مناخية. وهي شواهد تثبت وجود روابط بين التاريخ الاقتصادي والسياسي للبشر والظواهر المناخية التي تأخذ بعدًا عالميًا أو شبه عالمي. ينظر: نايل، ص 88.

نطاقها يتسع ليشمل الطبيعة التي يحيا فيها البشر ويتآثرون معها، والتي تقبع فيها تلك البنى.

2. نظرية النظام-العالم والجائحة والحاجة للدولة[49]

أصنّفُ في هذه الدراسة نظريةَ النظام-العالم ضمن براديغم التعقّد؛ إذ ما فتئ إيمانويل فالرشتاين، أحدُ أبرز مطوّريها، يحاجّ بأن مفهومه عن النظام-العالم ينبغي أن يُفهم في إطار "العلم الجديد"، أيْ علم التعقُّد[50]. لقد سمحت الدراسات المؤسِّسة لهذا العلم بتدفق البحوث في مختلف مجالات المعرفة، الطبيعية والاجتماعية، التي تسعى لاستكشاف مظاهر التعقُّد والشواش وكل مجال معرفي، والظواهر التي يتخصص في البحث فيها. وهكذا بدأت مفاهيمُ التعقُّد والشواش في الانتشار في أدبيات علوم الأحياء، والبيئة، والنفس، والاقتصاد، والاجتماع، والمعلومات، وتقريبًا خلال العقدين الأخيرين في حقول المعرفة كافة. فضلًا عن ذلك، يعرف الجميعُ مدى ضيق التخصصات العلمية وانغلاقها على نفسها؛ إذ من النادر أن يقرأ عالمُ أحياء وعالم فيزياء، أو عالم اجتماع وعالم رياضيات، البحث نفسه، لكن الأبحاث التي تدرس التعقُّد والشواش هي ما (يمكن أن) يوحّد بين فروع المعرفة كافة على اختلاف مجالات تخصصها. وفي سياق هذه التحولات المعرفية، تأتي تأمّلات فالرشتاين وإسهاماته في تطوير نظرية النظام-العالم، خاصة المتأخرة منها.

يدُلُّ مفهوم النظام-العالم، مثلما طوّره فالرشتاين، على بنية معقّدة ذاتية الاحتواء، محدودة المجال في الزمان والمكان، يدمج مجموعة من الأنشطة والمؤسسات التي تمتثل لقواعد نظمية/ نسقية معيّنة[51]. ويُنبّهنا فالرشتاين إلى محاذير الخلط بين النظام-العالم World-system والنظام العالمي World System، مشيرًا إلى أن الواصلة في المصطلح وتصنيفيْه الفرعييْن، الاقتصاد-العالم World-economy والإمبراطورية-العالم World-empire، هي تأكيدٌ أنّنا لا نتحدث عن نظم واقتصادات وإمبراطوريات تشمل العالم (برمّته)، لكننا نتحدث عن نُظم واقتصادات وإمبراطوريات يشكل كلٌّ منها عالَمًا في ذاته (لكنه قد لا يشمل، وهو فعلًا غالبًا ما لا يشمل المعمورة برمّتها). وقد شهد التاريخ مثلًا شكل الإمبراطورية-العالم خلال الحقبة الرومانية التي مثّلت "بنية من سلطة سياسية واحدة للنظام-العالم ككل" (ويشير فالرشتاين إلى أن الأعوام الخمسمئة الماضية شهدت عدة محاولات لإنشاء مثل هذه الإمبراطورية. غير أنها جميعًا باءت بالفشل)[52]. غير أن النظام-العالم الحديث الذي نعيش فيه، ومن حيث الممارسة لا المفهوم، يُعَدُّ عالميًّا بامتياز. لقد نشأ في القرن السادس عشر، وبعد أن كان مقتصرًا على جزء من العالم – أجزاء من أوروبا والأميركتين – توسَّع مع مرور الزمن ليُغطّي أنحاء المعمورة جميعها[53]؛ وما يُميّزه من الإمبراطورية-العالم هو أن هذا الأخير ينطوي على نظام سياسي مركزي سلطوي، يُعيد توزيع الموارد من أطرافه إلى مركزه (عبر نظام الضرائب مثلًا). وبخلاف ذلك، ينطوي النظام-العالم على مراكز قوى سياسية متعددة ومتنافسة، توحّدها سوقُ الاقتصاد - العالم الرأسمالي وتنظم التنافس بينها.

يتميّز النظام-العالم بخاصيتين أساسيتين: الخاصية الأولى هي أنه ذاتيُّ الاحتواء ويمانع الفصل بين بنيته الاقتصادية وبنيته السياسية. ولا تعني هذه الخاصية ترابطًا لا فكاك منه بين المؤسسات السياسية والاقتصادية للنظام فحسب، لكنها تعني أيضًا أنها جميعها تظل حبيسة حركة الزمن التي تتطوّر عمليات النظام في اتجاهها (نحو تراكم لانهائي لفائض القيمة)، ويشمل ذلك أيضًا مؤسسات اجتماعية جوهرية، مثل الأسرة والطبقة والجماعة الإثنية، أو ما صرنا نُسمّيه اليوم "الهويات"[54]. ومن الواضح أن التحوّلات التاريخية التي تعرفها هذه المؤسسات قاطبة، تحدث في سياق تحوّلات الاقتصاد-العالم الرأسمالي، مرادفِ النظام-العالم الحديث. وعلاوة على ذلك، يُحاجّ فالرشتاين بأن الفصل بين السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي لا يعدو أن يكون بناءً متخيَّلًا في أذهاننا، لا يمتّ للواقع بِصِلة[55]. ويُفهم من هذا كيف تتعايش بنية النظام-العالم الاقتصادية والسياسية وتتواشج، على الرغم من أن الأولى عبارة عن سوق رأسمالية عالمية، في حين تنطوي الثانية على نظام من الدول Interstate System يتشكّل من مراكز قوة متعددة ومتنافسة؛ مثلما يُفهَم كيف يؤدي هذا التنافس – تشد عضُدَه ديناميّاتُ السوق الرأسمالية العالمية – إلى تقويض فكرة "الحكومة العالمية"، لكنه في الوقت نفسه يحافظ على مستويات محدودة من "الحوكمة العالمية" من أجل شرعية النظام-العالم نفسه؛

---

49 أستند في عرض أفكار هذا المبحث إلى بحث منشور سابقًا، ينظر: حمشي، "عن إمكانية التنبؤ زمن جائحة كورونا". كما يمكن العودة إلى مناقشات أخرى بشأن الموضوع نفسه في هذا العدد إلى: أحمد قاسم حسين، "النظام الدولي وجائحة كورونا: سجال تأثير الأوبئة في العلاقات الدولية"، **سياسات عربية**، العدد 50 (أيار/ مايو 2021)، ص 39-57. خيّر.

50 Wallerstein, *After Liberalism*, pp. 27-143;

ينظر أيضًا:

Peter E. Grimes, "Evolution and World-Systems," *Journal of World-System Research*, vol. 23, no. 2 (2017).

51 Immanuel Wallerstein, *World-Systems Analysis: Introduction*, 4th ed. (North Carolina: Duke University Press, 2004), pp. 16-17.

52 Ibid., p. 57.

53 Ibid., p. 23.

54 Ibid., pp. 24-25.

55 Ibid., p. x.

الحوكمةُ العالمية التي تُعَدُّ حوكمة الصحة العالمية – على عَلّاتِها التي طفت إلى السطح مع تفشي جائحة كورونا – أحد أركانها الرئيسة.

أما الخاصية الثانية، فهي أنّ الاقتصاد-العالم الرأسمالي، جوهرُ النظام-العالم الحديث، يميل باستمرار إلى الصيرورة (بالصاد لا بالسين) ضمن دورات متكررة – متماثلة ذاتيًّا إذا استعملنا مفردات علم التعقُّد – من التوسع والركود. يستند فالرشتاين في ذلك إلى دورة كوندراتييف Kondratiev التي تُبيّن أن الاقتصاد-العالم يمر بدورات متعاقبة من التوسع والركود، [تكاد] تحدث بانتظام كل 40 إلى 60 سنة[56]. على أي حال، ثمة إقرار واسع بين علماء الاقتصاد بصلاحية هذه النظرية وقدرتها [حتى ولو نسبيًّا] على التفسير والتنبؤ، غير أن فالرشتاين يضيف إليها محاجتين أساسيتين: الأولى هي أن الوضع بعد نهاية دورة كوندراتييف لا يعود إلى ما كان عليه في بدايتها، لأن، من شأن ما يجري فعله في مرحلة الركود سعيًا للخروج منها والعودة إلى مرحلة التوسع، أن يُغيّر مقاييس Parameters الاقتصاد-العالم[57]. وهذا ما يُعلّمنا إيّاه علم التعقد عبر مفهوم التشعب[58]، لكن ذلك يحدث ضمن حدود نظام يُبدي قدرةً ثابتة على تنظيم نفسه، و"إعادة" بناء نفسه، و"إعادة" ضبط نفسه، وإعادة إنتاج نفسه. أما المحاجّة الثانية، فهي أن طول مرحلة الركود يتوقف على الإجراءات السياسية التي تتّخذها الدول من أجل التعافي منها والعودة إلى مرحلة التوسع[59]. إذًا، الدولة هي صمام أمان النظام-العالم ليحافظ على الخصائص التي ذُكِرت آنفًا. لذلك، يبدو أن ما يشهده العالم اليوم – مع تفشّي جائحة كورونا – من عودة الدولة، سيزداد حدَّةً على حدَّة إذا ما دخل الاقتصاد-العالم دورةَ ركود طويلة، تحديدًا من أجل التعافي منها والعودة في أسرع ما يمكن إلى الدورة التالية. إن حاجة الاقتصاد-العالم الرأسمالي إلى الدولة في هذه الحقبة العصيبة لا تقلّ عن حاجة الدولة إلى نمط الاقتصاد-العالم الذي يتوسّع بلا هوادة. إن الاقتصاد-العالم ونظام الدول متعاضدان ومتواشجان، ولا غنى لأحدهما عن الآخر.

لا يختلف العالم اليوم كثيرًا عن العالم الذي تحدّث عنه فالرشتاين؛ عالمٌ تحكمه بنيةٌ معقدةٌ من نظام-عالم رأسماليّ، آخذ في مراكمة فائض القيمة وإعادة توزيعه من أطراف النظام إلى مراكزه – وإن زادت تلك المراكز تعدادًا بصعود قوى أخرى – ونظام دوليّ تظل فيه الدولة مهمة، تُحِلُّ المشكلات وتَحُلُّها في الوقت نفسه A Problem-maker and a Problem-solver، وتظل أداة فعالة لحل أزمات النظام-العالم الرأسمالية؛ لذلك، ينبغي لنا أن ننتبه دائمًا إلى أن العولمة لا تُقوّض دور الدولة فحسب، لكنها تُعزّزه أيضًا. ولْنُفكِّرْ هنا في عدد من الواجبات المترابطة التي تتطلّب الجائحة من الدولة القيام بها بصورة متزامنة: تعزيز الإجراءات الوقائية، وتوفير العلاج، وتطوير اللقاح و/ أو توفيره، ومعالجة الركود الاقتصادي وتبعاته، وصون النظام العام مع صعود الاحتجاجات المناهضة لتدابير الحجر الصحي وتكييف سياساتها العامة مع ظروف الجائحة وما بعدها، وما إلى ذلك.

إذا كان الأمر كذلك، فإن ما يمكننا فهمه هو أن الأعباء المُلقاة على كاهل الدولة تزداد ثقلًا في مواجهة تهديدات عابرة للحدود تغيّرُ شكلها باستمرار؛ تهديداتٌ غدت إقليمية (عابرة للحدود، لكن على مستوى إقليمي) أكثر من كونها وطنية (داخل الحدود)، لكن في الوقت نفسه أقلّ من كونها عالمية؛ إذ تظل التهديدات العابرة للحدود على مستوى عالميّ نادرة، مثل التهديدات البيئية، والتهديدات الصحية لمّا يتعلق الأمر بالجائحات العالمية، كما تُبيّنه جائحة كورونا. وهو ما من شأنه أن يشدد على أهمية الإقليمي باعتباره قوة جاذبة، إلى جانب المحلي والعالمي.

من شأن هذه الأعباء أن تُقوّض كفاءة الدولة في ضبط التفاعلات الاقتصادية عبر الحدود، مقارنة بدور "اليد الخفية" للسوق العالمية، ما سيجعل الترتيبات الإقليمية مستمرة في النمو بوصفها أدوات لإنقاذ سلطة الدولة من الانعكاسات "غير المرغوبة" للعولمة. فضلًا عن ذلك، ينبغي لنا ألّا ننسى أنّ الحاجة إلى الأمن والرفاه تجعل الجميع يلوذ بالدولة؛ فالأفراد والمؤسسات والسوق في حاجة إلى الدولة[60]، ربما أكثر من أي وقت مضى، بسبب

56 Ibid., pp. 30-31.

57 Ibid., p. 30.

58 التشعب Bifurcation هو التفرع إلى حالتين أو أكثر. وفي سياق علم التعقُّد، يُقصد به أن الأنظمة المعقدةَ والشواشيةَ لاخطيةٌ وبعيدةٌ عن التوازن بسبب عوامل الاضطراب الكامنة في ديناميكياتها وفي بيئتها. وتستمر هذه العوامل في الضغط على النظام حتى يبلغ نقطة معيّنة، تسمى نقطة تشعب النظام، حيث يتشعب إما إلى نسخة جديدة من النظام نفسه (عبر آليات التنظيم الذاتي والتماثل الذاتي الكامنة في النظام نفسه)، وإما يتفكك، فاسحًا المجال لانبثاق نظام جديد تمامًا. ينظر: حمشي، **مدخل إلى نظرية التعقد**، ص 118-121؛ حمشي، "عن إمكانية التنبؤ زمن جائحة كورونا".

59 Wallerstein, *World-Systems Analysis*, p. 30.

60 للدولة دورها الحاسم في الإبقاء على النظام العالمي بعيدًا عن حافة الانهيار الذي قد تسببه المخاوف من "نهاية الدولة"، حيث يمكن ملاحظة تجاذب ثابت بين طرفي نقيض؛ فالفرد يسعى للاستفادة من مزايا العولمة، لكنه في المقابل يتمسك بالدولة لحمايته من مخاطرها؛ مثلما أن الفواعل من غير الدول تتبنّى موقفًا هجينًا من الدولة، فهي قد تعمل على تقويض سلطتها، لكن ليس إلى الحد الذي قد تختفي معه. ينظر: حمشي، **مدخل إلى نظرية التعقد**، ص 210.

تزايد حدّة التحوّلات العالـمية[61]. وهذا ما تُبيّنه أيضًا تجربة جائحة كورونا؛ وما ستُبيّنه المرحلة اللاحقة للسيطرة على الجائحة قد لا يتعدّى تمسّكًا أقوى بالترتيبات الإقليمية[62]، أملًا في تجاوز المتاعب الناجمة عن تعطّل عجلة الاقتصاد العالمي. فبعد أن قوّضت الحملاتُ الانتخابيةُ الشعبويةُ، اليمينيةُ واليساريةُ، في أثناء الانتخابات الرئاسية الأميركية في عام 2016، مشروعَ الشراكة عبر المحيط الهادئ الذي بدأه الرئيس باراك أوباما Barack Obama (2009-2017)، وأطلق عليه الرئيس ترامب رصاص الرحمة بمجرد بلوغه الرئاسة[63]؛ وبعد أن تضررت تحالفاتُ الولايات المتحدة التجاريةُ والاقتصاديةُ تحت وطأة سياساته الحمائية، هي ذي الصينُ واليابانُ وكوريا الجنوبيةُ ونيوزيلندا وأستراليا وعشرُ دول في جنوب شرق آسيا تُوقّع مجتمعةً اتفاقيةَ "الشراكة الاقتصادية الإقليمية الشاملة" التي تضم ثلث حجم التجارة العالمية. حدث هذا في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر 2020، ويُتوقع أن تخفف الاتفاقيةُ من وطأة التكلفة الاقتصادية لجائحة كورونا وتُعيد تشغيل الاقتصاد العالمي[64].

3. نظرية التعقّد وجائحة كورونا

مقارنة بالنظريات السائدة في حقل العلاقات الدولية، التي تناولها المبحث السابق، يكشف بحثٌ سريعٌ في الأدبيات عن حجم وفير مما نُشِر عن جائحة كورونا من منظور التعقد، إنْ في حقل العلاقات الدولية ومختلف محاور بحثه الأساسية، أم في مجال السياسات العامة الصحيّة، الوطنية والعالمية، بما في ذلك حوكمة الصحة العالمية والاقتصاد العالمي، فضلًا عن فهم الجائحة في حدّ ذاتها[65]. غير أن الأعمال المبكرة لإقحام علم التعقُّد والأنظمة المعقدة في العلوم الصحية والوبائية تعود إلى سنوات خلت قبل تفشّي جائحة كورونا[66]، في محاولة لتحسين استراتيجيات الوقاية والتدخل؛ إذ صار واضحًا من منظور التعقّد أن "الصحة والمرض يتأثران بعواملَ متعددة ومتنوعة ومعقدة"، تتراوح بين مناعة الحواضن المضيفة

61 المرجع نفسه، ص 260.

62 في منتصف كانون الأول/ ديسمبر 2020، اعتمد الاتحاد الأوروبي "إطارًا ماليًا متعدد السنوات لفترة 2021-2027، يتيح اعتماد خطة إنعاش غير مسبوقة، بمبلغ إجمالي قدره 750 مليار يورو، بما في ذلك 390 مليار يورو في شكل إعانات". يُنظر: "التضامن الأوروبي في مواجهة فيروس كورونا"، وزارة أوروبا والشؤون الخارجية الفرنسية، شوهد في 2021/2/8، في: https://bit.ly/3jKM0sD؛ وينظر مثلًا دعوة الهند إلى استجابة إقليمية في جنوب آسيا لمواجهة تفشّي وباء فيروس كورونا:
Rekha Dixit, "India leads regional response to coronavirus pandemic," *The Week Magazine*, 15/3/2020, accessed on 8/2/2021, at: https://bit.ly/2JQoUiY

63 ينظر:
Amy Skonieczny, "Populism and Trade: The 2016 US Presidential Election and the Death of the Trans-Pacifc Partnership," in: Frank A. Stengel, David B. MacDonald & Dirk Nabers (eds.), *Populism and World Politics* (Cham, Switzerland: Palgrave Macmillan, 2019), pp. 337-336.

64 على الرغم من أن الولايات المتحدة ليست جزءًا من الاتفاقية، فإن الشركات المتعددة الجنسيات ستستفيد منها بمجرد وجودها بين الدول الأعضاء في الاتفاقية. ينظر: "إنشاء أكبر منطقة تجارة حرة تضم اقتصادات حجمها 26 تريليون دولار"، **العربي الجديد**، 2020/11/16، شوهد في 2021/2/8، في: https://bit.ly/3tRfnOp

65 هذه القائمة غير حصرية بأي حال من الأحوال:
Michael C. Jackson, "How We Understand 'Complexity' Makes a Difference: Lessons from Critical Systems Thinking and the Covid-19 Pandemic in the UK," *Systems*, vol. 8, no. 4 (November 2020); S. Mangiarotti et al., "Chaos Theory Applied to the Outbreak of COVID-19: An Ancillary Approach to Decision-Making in Pandemic Context," *Epidemiology and Infection*, vol. 148 (May 2020), Octavian Postavaru, S.R. Anton & Antonela Toma, "COVID-19 Pandemic and Chaos Theory," *Mathematics and Computers in Simulation*, vol. 181 (March 2021) pp. 138-149; T. Ibn-Mohammeda et al., "A Critical Analysis of the Impacts of COVID-19 on the Global Economy and Ecosystems and Opportunities for Circular Economy Strategies," *Resources, Conservation & Recycling*, vol. 164 (January 2021); Imad Hassan et al., "A Systems Thinking Approach for Responding to the COVID-19 Pandemic," *Eastern Mediterranean Health*, vol. 26, no. 8 (2020); Tiago S. Jesus, Michel D. Landry & Karen Jacobs, "A 'New Normal' Following COVID-19 and the Economic Crisis: Using Systems Thinking to Identify Challenges and Opportunities," *Work*, vol. 67 (2020) pp. 37-46; Constantin Bratianu, "Toward Understanding the Complexity of the COVID-19 Crisis," *Management & Marketing*, vol. 15, no. S1 (October 2020); Fengbin Wang & Xue Zhang, "Microstructures and Dynamic Processes within the Five-Phase System: Regarding COVID-19 as a Complex System," *Frontiers of Business Research in China*, vol. 14, no. 20 (September 2020); Joachim P. sturmberg & Carmel M. Martin, "Covid-19: How a Pandemic Reveals that Everything is Connected to Everything Else," *Journal of Evaluation in Clinical Practice*, vol. 26, no. 5 (2020); Federica Angelia & Andrea Montefusco, "Sensemaking and Learning During the Covid-19 Pandemic: A Complex Adaptive Systems Perspective on Policy Decision-Making," *World Development*, no. 136 (December 2020); Francesco Gonella et al., "Addressing COVID-19 Communication and Management by a Systems Thinking Approach," *Frontiers in Communication*, vol. 5 (July 2020); Rainer Johannes Klement, "Systems Thinking about SARS-CoV-2," *Frontiers in Communication*, vol. 5 (October 2020); David Haley, Alberto Paucar-Caceres & Sandro Schlindwein, "A Critical Inquiry into the Value of Systems Thinking in the Time of COVID-19 Crisis," *Systems*, vol. 9, no. 1 (2021); Hua Zheng & Aldo Bonasera, "Chaos, Percolation and the Coronavirus Spread," *Frontiers in* Physics, vol. 135 (April 2020); Declan Terence Bradleya et al., "A Systems Approach to Preventing and Responding to COVID-19," *EClinilcal Medicine*, vol. 21 (April 2020), accessed on 8/2/2021, at: https://bit.ly/2Z7zKJf; Gabriela Ramos & William Hynes, "A Systemic Resilience Approach to Dealing with Covid-19 and Future Shocks," *New Approaches to Economic Challenges (NAEC)*, OECD, 28/4/2020, accessed on 8/2/2021, at: https://bit.ly/2N8OYKX

66 ينظر على سبيل المثال لا الحصر:
Stefanie J. Krauth et al., "A Call for Systems Epidemiology to Tackle the Complexity of Schistosomiasis, Its Control, and Its Elimination," *Tropical Medicine and Infectious Disease*, vol. 4, no. 1 (March 2019); A.M. El-Sayed & S. Galea, *Systems Science and Population Health* (Oxford: Oxford University Press, 2017); J.P. Sturmberg, *The Value of Systems and Complexity Sciences for Healthcare* (Berlin: Springer Publishing, 2016); Gemma Carey et al., "Systems Science and Systems Thinking for public Health," *BMJ Open*, vol. 5 (2015); B. Newell et al., "Seeing Obesity as a Systems Problem," *New South Wales Public Health Bulletin*, vol. 18, no. 11-12 (November 2008); M. Joffe et al., "Causal Diagrams in Systems Epidemiology," *Emerging Themes in Epidemiology*, vol. 9, no. 1 (2012); Andrew T. Price-Smith, *Contagion and Chaos: Disease, Ecology, and National Security in the Era of Globalization* (Cambridge, MA/ London: The MIT Press, 2009); Taghreed Adam, "Advancing the Application of Systems Thinking in Health," *Health Research Policy Systems*, vol. 12, no. 50 (2014); Eiliv Lund & Vanessa Dumeaux, "Systems Epidemiology in Cancer," *Cancer Epidemiology and Prevention Biomarkers*, vol. 17, no. 11 (November 2008); Neil Pearce & Franco Merletti, "Complexity, Simplicity, and Epidemiology," *International Journal of Epidemiology*, vol. 35, no. 3 (June 2006).

والبيئة الاجتماعية والبيئة الطبيعية والمناخ وفرص الوصول إلى الخدمات الوقائية والعلاجية، وغيرها. لذلك، وجب تصميم استراتيجيات المكافحة بناءً على فهم أفضل وأشمل لمجموع العوامل الأوسع التي تؤثر في انتقال المرض وتحدد فرص نجاح التدخل. وقد دعت أدبياتٌ عديدةٌ إلى وجوب مراعاة العلاقات المتواشجة المعقدة Complex Interrelationships، والخصائص المنبثقة Emergent Properties، وحلقات التغذية الراجعة غير الخطية Non-linear Feedback-loops – وهي جميعها مفاهيم في صلب نظرية التعقُّد. ولا يمكن تحديد مثل هذه الارتباطات المتبادَلة Interdependencies في نظامٍ ما من خلال النظر في كلّ عامل من تلك العوامل على حدة، بل من خلال النظر إلى النظام إجمالًا، وذلك نقيض المقاربات الوبائية التقليدية، الاختزالية، التي تتعامل مع عدد محدود من العوامل المرتبطة على نحو مباشر بالوباء، أملًا في تبسيط الميكانيزمات السببية واختزالها في مكونات أصغرَ فأصغرَ تُمكّننا من استخلاص استنتاجات قابلة للتعميم[67].

في السياق نفسه، تحاجّ إليزابيث بول وغاريت براون وفاليري ريد بأن الاستجابات السائدة لجائحة كورونا تستند إلى ما يسمى البراديغم الباستوري (نسبة إلى لويس باستور) الذي ينص على أن كلَّ مرض يَنتج من مُمْرض واحد Pathogen. وبناء عليه، فإن لكل مرض علاجًا واحدًا، يستهدف المُمْرض المسبِّب لذلك المرض. واستنادًا إلى هذا البراديغم، تتسابق المختبرات إلى إيجاد العلاج أو اللقاح المضاد لفيروس كورونا، وهو لقاحٌ قد تصير فاعليته محدودة إذا ما تحوّر الفيروس في وقت لاحق. ومع ذلك، من السهل رؤية كيف أن المُمْرضات كلما زاد عددها في المستقبل، وهو ما سيحدث لا محالة (وتبيَّن هذا سابقًا في هذا المبحث)، قلَّت الجدوى من الاستناد إلى هذا البراديغم. ومن جهة أخرى، يفرض هذا البراديغم منهجًا محدودًا في البحث – يستند إلى تجارب التحكم العشوائية التي تحاول عزل متغير واحد من المتغيرات الممكنة كلها – ويقدمه على أنه المقياس الملائم للعلم، ما يجعل المناهج الأخرى أقرب ما تكون إلى الدَّجل. مع ذلك، ثمة العديد من الأدلّة التي تشير إلى أنه بخلاف المُمْرض الواحد، فإن تطور المرض يتأثر تأثرًا كبيرًا بالسياقات المادية والاجتماعية التي يعمل فيها، وبالعوامل الاجتماعية والسياسية والبيئية. ويبدو هذا معروفًا على نطاق واسع لمَّا يتعلق الأمر بالأمراض المزمنة غير المعدية، لكنه ينطبق أيضًا على الأمراض المعدية، خاصة بالنسبة إلى حالات العدوى الناشئة التي يمكن فيها ملاحظة الدور المُمْرض لانعدام المساواة الاجتماعية. علاوة على ذلك، لا تفتأ الحدود التقليدية بين الأمراض المعدية وغير المعدية تتلاشى مع وجود دلائلَ على ما صار يعرف بـ "العدوى البيو-اجتماعية" Biosocial Contagion[68].

تقترح بول وبراون وريد، بدلًا من ذلك، مقاربةً كُلّانيةً للصحة؛ مقاربةٌ من شأنها أن تكون أكثرَ فاعليةً وكفاءةً وإنصافًا، حيث تصير كيفية تحضير السكان – بما في ذلك الفئات الأكثر هشاشة – لمواجهة الأوبئة مستقبلًا على رأس السياسات الصحية الوطنية والعالمية، وعلى رأس أجندات البحوث. وينبغي أن يعكس هذا مقاربةً أمنيةً (مواجهة المشكلات المترتبة على الأعراض المرضية) ومقاربةَ تنمية صحية (معالجة الأسباب والمحددات الأولية). وعند القيام بذلك، ينبغي ألا تقتصر الأهداف على مجرد تفعيل وضع الاستجابة، بل يجب أن تشمل جهودًا متضافرةً للحدّ من دور العوامل البيئية وحماية التنوّع البيولوجي والحدّ من حالات التفاوت الصحي والاجتماعي وتعزيز نظم الصحة الوقائية المحلية ومساعدة السكان على الحدّ من عوامل الخطر الفردية وتقوية مناعتهم الطبيعية – ولا سيما من خلال التوعية بمختلف "السلوكات الصحية" والأنظمة الغذائية التي ثبت أنها تقوّي جهاز المناعة العامة[69].

لذلك، تتطلّب أزمة جائحة كورونا تحوّلًا نوعيًا في البراديغم الذي تُصنع في إطاره السياسات الصحية العامة والعالمية. فالعالم لن يكون مستعدًّا للأوبئة المقبلة ما لم تُتَّخذْ خطواتٌ جريئةٌ لخّصتها بول وبراون وريد كما يلي: أولًا، لا ينبغي أن تُصمَّم السياسات الصحية العالمية على أساس أسلوب الاستجابة لتهديدات كلِّ حالة على حدة، بل يجب أن تعتمد مقاربة نظميةً/ نسقيةً مبنيةً على تصور كُلّاني للأعباء العالمية والمخاطر والظروف الصحية التي تفرضها الأمراض، فضلًا عن مراعاة الآثار النظمية/ النسقية الواسعة النطاق الناجمة عن التدابير المعتمدة؛ وثانيًا، ستتطلّب مواجهة التشظّي الراهن الذي تعرفه الحوكمة الصحية العالمية تحوّلًا جوهريًا في صنع السياسات الصحية العالمية، من براديغم قائم على ردة الفعل، إلى براديغم نسقي/ نظمي ووقائي، مع إبداء التزامات جادّة بالأمن الإنساني الصحي [إذ لا يمكن بأيّ حال من الأحوال فصله عن الأمن القومي للدول]؛ وثالثًا، ثمة حاجةٌ إلى تحويل التركيز من السياسات العلاجية القصيرة الأجل القائمة على البراديغم الباستوري، إلى السياسات الوقائية الطويلة الأجل القائمة على رؤية كُلّانية لصحة مجموع السكان إجمالًا، وهي سياساتٌ تتضمن بوجه خاصّ الحدَّ من دور العوامل البيئية،

67 Krauth et al., pp. 2-3.

68 Elisabeth Paul, Garrett W. Brown & Valery Ridde, "COVID-19: Time for Paradigm Shift in the Nexus Between Local, National and Global Health," *BMJ Global Health*, vol. 5 (2020), p. 3.

69 Ibid.

والحدَّ من حالات التفاوت الصحي الاجتماعي، ومساعدةَ السكان على الحدِّ من عوامل الخطر الفردية وتعزيز مناعتهم الطبيعية؛ وأخيرًا، يجب تكييف هذه السياسات الوقائية الشاملة مع السياقات المحلية وتنفيذها من خلال أنظمة صحية محلّية قوية، قادرة على امتلاك القدرة "الوقائية" وعلى الاستجابة لحالات الطوارئ[70]. لذلك، فإن هذا التحول في البراديغم ينبغي أن يجري في ضوء المنطق الذي تستند إليه نظرية التعقد؛ منطق التشبيك بين المحلّي والعالمي، ضمن ما سمَّاه جيمس روزنو "العومحلي" The Glocal[71].

> دأبت المقاربات الاختزالية، التي تدعو نظريةُ التعقد إلى تجاوزها، على فهم المشكلات عبر تفكيكها إلى مشكلات (أو مكوّنات) أصغرَ فأصغر، وتحليل كلِّ مشكلة صغرى على حدة، ثم إعادة تركيبها مرة أخرى لفهم تلك المشكلة (الكلُّ هو مجموع الأجزاء). غير أن هذه المقاربة تفشل باستمرار في فهم المشكلات التي تتآثر فيها مكوناتٌ متعددةٌ تتفاعل بطريقة غير خطية

دأبت المقاربات الاختزالية، التي تدعو نظريةُ التعقد إلى تجاوزها، على فهم المشكلات عبر تفكيكها إلى مشكلات (أو مكوّنات) أصغرَ فأصغر، وتحليل كلِّ مشكلة صغرى على حدة، ثم إعادة تركيبها مرة أخرى لفهم تلك المشكلة (الكلُّ هو مجموع الأجزاء). غير أن هذه المقاربة تفشل باستمرار في فهم المشكلات التي تتآثر فيها مكوناتٌ متعددةٌ تتفاعل بطريقة غير خطية. وتنطوي هذه المشكلات، التي صارت تُعرف بأنها معقّدة وشواشية، على شبكة متشابكة من المكوّنات والمكوّنات الفرعية التي تفتقر إلى تحكم مركزي، كما أن دينامياتها تتطور باستمرار عبر الزمن؛ ولا يمكن تعقّب العلاقة بين السبب والنتيجة فيها (سببية حلقية لاخطية[72])؛ وهي تُبدي درجات عاليةً من التقلّب واللايقين والغموض؛ وغالبًا ما يتطلّب حلُّها مقاربة متعدّدة التخصصات (ولذلك، يقدم علم التعقّد نفسه بأنه علمٌ متعددُ التخصصات/ عابرٌ للتخصصات). وإذا ما أبدت المشكلاتُ المعقدةُ سلوكًا شواشيًا حادًا، فإن محاولات حلّها غالبًا ما تَنبثق منها مشكلات ناشئة لم تكن متوقعة.

يُقدّم رايموند أنيانْوُو، على سبيل المثال، مقاربةً قائمةً على منظور التعقد، لفهم الكيفية التي تتآثر بها مشكلة تفشّي جائحة كورونا مع مشكلات التغير المناخي[73]. ففي حين أن تغيّر المناخ هو "عملية فيزيائية" تصيب ببطء نظام مناخ الأرض (نظام طبيعي)، ولا تتآثر مع النظام البيئي (نظام طبيعي) فحسب، بل أيضًا مع الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية (الأنظمة المتمحورة حول الإنسان)، فإن تفشّي جائحة كورونا هو "عملية بيولوجية" تسري بين الإنسان والحيوان، وتنتشر بسرعة في كلِّ مكان، وتؤثر بدورها تقريبًا في كلِّ نظام من الأنظمة الفرعية المتمحورة حول الإنسان. لذلك، تقترح نظرية التعقد، على نحو ما سبق، أن فهم الجائحة – سواء تعلق الأمر بأسبابها أو آثارها أو الجهود العالمية للاستجابة لها – ينبغي أن تنطلق من "الإقرار بالترابط الوثيق بين الأنظمة الطبيعية والأنظمة المتمحورة حول الإنسان"[74]، بما في ذلك النظام الدولي الذي ينبغي فهمه بوصفه نظامًا-عالمًا ، تتشابك وتتآثر بُنَاهُ السياسيةُ والاقتصاديةُ والاجتماعيةُ (المحليةُ والوطنيةُ والعالميةُ) بعضُها مع بعض، مثلما تتشابك وتتآثر هذه البنى مع الطبيعة الأوسع، حيث تكمُن.

خاتمة

اتَّضح في مبحث البنائية كيف أن الجائحة ينبغي عدم فهمها بوصفها معطى ماديًا، وكيف أنها في نهاية المطاف عبارةٌ عن فهوم ومعانٍ وتأويلات يُضفيها عليها الفاعلون. ويمكن أن نضيف هنا أن الجائحة، في جوهرها، قضيةٌ سياسية؛ إذ ترتبط بمسألتين أساسيتين: الأولى كيفيةُ تفشيها، والثانية كيفيةُ (أو كيفيات) مواجهة تفشّيها؛ وفي القلب من كلتيْهما، لا مناص من التفكير في السياسة، وفي

70 Ibid., p. 4.

71 ينظر:
James Rosenau, *Distant proximities: Dynamics Beyond Globalization* (Princeton: Princeton University Press, 2003), p. 11.

72 عن السببية من منظور التعقد، ينظر: محمد حمشي، "السببية مشكلة في حقل العلاقات الدولية: ما الذي يمكن تعلّمه من علم التعقّد؟"، **سياسات عربية**، العدد 41 (تشرين الثاني/ نوفمبر 2019).

73 Raymond N. Anyanwu, "Looking through the Lens of Complexity Theory: An Evaluation of Climate Change and Coronavirus 2019 Outbreak," *Asian Journal of Interdisciplinary Research*, vol. 3, no. 2 (May 2020), pp. 38-39.

74 Kavalski, "Inside/Outside and Around," p. 4.

السياسة الدولية[75]. منذ البدايات الأولى لتفشي الجائحة، طُلب من المشتغلين في حقل العلاقات الدولية وبانتظام، أن يشرحوا لوسائل الإعلام العلاقات/ السياسة الدولية التي تقف خلف الاستجابة لتفشّي الجائحة: لماذا تتباين سياسات الإبلاغ أو الاختبار أو الاستجابة بين الدول؟ إذ كانت ثمة دولٌ تستجيب لتوجيهات منظمة الصحة العالمية ودولٌ ترسم طريقها الخاصة؛ وما التداعيات السياسية والاقتصادية وتلك المتعلقة بالسفر والتجارة العالمية؟ وهل ثمة سياقات إقليمية واضحة لتصنيف اتجاهات التفشي والاستجابات على حدّ سواء؟ في هذا السياق، سجّلت سارة دايفيس وكلير وينهام دهشتهما من أن منظمة الصحة العالمية أو مسؤولي (الصحة) المحليين نادرًا ما طرحوا هذه الأسئلة، سعيًا لتحسين جهود الاستجابة[76]، كما استهجنتا امتعاض مجموعة اختصاصيين في الصحة العالمية من عدم وجود دراسات منشورة حول موضوع الأمن الصحي وكيفية تعزيز قدرة الدولة على الاستجابة للوائح الصحية الدولية[77]؛ إذ على الرغم من الحجم الهائل من أبحاث العلاقات الدولية المنشورة ذات العلاقة، فإن أبحاث العلوم الاجتماعية يبدو أن خبراء الصحة لا يقرؤونها، وتبدو الجماعات المعرفية المتخصصة في الصحة العامة والأمن الصحي العالمي كأنها تُفضّل البقاء في صوامعَ منفصلة، بعضها عن بعض[78].

قد تشكل نظرية التعقّد فرصة لجعل النقاش بين هذه الجماعات المعرفية ممكنًا، أو هذا ما يزعمه، ويسعى له أنصارها من مختلف الحقول المعرفية منذ سنوات عـدة. ولا تسعى هذه الدراسة للمفاضلة بين طرائق تفكير نظريات العلاقات الدولية في جائحة كورونا. ولا بأس في اعتبارها عملًا وصفيًا بحتًا. لكنها، وكما جاء في مقدمتها، تقدم للقارئ مجموعةً من النَّظارات التي يمكن عبرها فهمُ الجائحة؛ فهي، إذا ما وضع القارئ نظّارةً واقعيةً، تهديدٌ يرقى إلى درجة التهديد الوجودي الذي يقتضي انكفاء الدول على نفسها وتمسّكًا أشدّ بسياسة "نفسي نفسي"! وهي تحدّ عابرٌ للحدود للنظام الدولي الليبرالي، بمعاييره ومؤسساته، إذا ما وضع نظّارةً ليبراليةً؛ وهي بناءٌ اجتماعيٌّ مفعمٌ بالمعاني والتأويلات البينذاتية، التي يضفيها عليها الفاعلون، تتباين بتباين الخطاب (إنها "ما تصنعه منها الدول")، إذا ما وضع نظّارةً بنائيةً؛ وإذا ما وضع نظارة التعقّد، فهي مشكلةٌ معقدةٌ تتطلب استجابةً معقدةً، تأخذ في الحسبان التآثرَ بين النظام الدولي بوصفه نظامًا متمحورًا حول الإنسان، والطبيعة بوصفها نظامًا غيرَ متمحور حول الإنسان، وتأخذ في الاعتبار التآثرَ بين مختلف مستويات الفعل السياسي، المحلي والوطني والإقليمي والعالمي، مثلما تأخذ في الحسبان أيضًا عبورَ التخصصات المعرفية وتعدُّدَها.

لا بد من التشديد على أن تسمية جائحة كورونا ظاهرةً أو مشكلةً معقدةً، لا ينبغي أن تُفهم "انحيازًا" إبستيمولوجيًا لنظرية التعقد، ولا بد من التشديد أيضًا على أن التوسع في الجزء المُفرَد لهذه النظرية لا ينبغي أن يُفهَم شحًّا في التحليل على النظريات الأخرى[79]. انطلقت الدراسة من افتراض رئيس مفاده أن النظرياتِ السائدةَ (الواقعية والليبرالية والبنائية) لا تقدم سوى المزيد من الشيء نفسِه عن جائحة كورونا من منظور التعقُّد. لذلك، وإذا ما استحضرنا أمثولة "الأنبذة والقناني" الواردة في عنوان الدراسة ومقدّمتها، يمكن أن يشكّل هذا البحث محاولةً في "تعتيق" منظور التعقد للعلاقات الدولية عربيًا. ومن ناحية أخرى، كَوْنُ الجائحة بدأت ظاهرةً طبيعيةً، وانتهى بها المطاف إلى أن صارت ظاهرةً متعددةَ الأبعاد، حتى لا أصرّ على استعمال نعت "معقدة"، فهذا يُمكّن نظرية التعقد من أن تعطي زخْمًا إضافيًا للنقاش الحالي بشأن الجائحة، مثلما بيّنت الدراسة. وبقدر ما أحاول الدفع بذلك درءًا للحكم على أطروحةِ الدراسة وبُنْيانِها بالانحياز إلى نظرية التعقّد، أو بالشّحّ عن النظريات الأخرى،

75 على المنوال نفسه، ينبغي النظر إلى منظمة الصحة العالمية وحوكمة الصحة العالمية والحوكمة العالمية برمّتها، باعتبارها بنية سياسية؛ ينبغي الإقرار بهذا والبناء عليه، لا الادّعاء أن مسائل الصحة (الوطنية والعالمية) مسائل تقنية يجب عدم تسييسها؛ فالجائحة تتفشى عبر دول تمارس السياسة بطرائقَ مختلفة، بعضُها عن بعض، ومن ثم ينبغي عدم المُضيّ بعيدًا مع الدعوات القائلة إن الصحة ينبغي تنزيهها عن السياسة. ومن هنا، اقترحت دايفيس ووينهام أن "منظمة الصحة العالمية في حاجة إلى تبنّي السياسي إلى جانب التقني، وينبغي على وجه التحديد أن تُشرِك في عملها خبراء السياسة الخارجية والدبلوماسية". لأن التأثير في سياسات الدول الوطنية وأنظمتها الصحية يتطلب ذلك، ولأن منطق التعاون الدولي أيضًا يقتضي ذلك، ينظر:
Sara E. Davies & Clare Wenham, "Why the COVID-19 Response Needs International Relations," *International Affairs*, vol. 96, no. 5 (September 2020), p. 1228.

76 Ibid., p. 1229.

77 Hans Kluge et al., "Strengthening Global Health Security by Embedding the International Health Regulations Requirements into National Health Systems," *BMJ Global Health*, vol. 3 (2018), accessed on 8/2/2021, at: https://bit.ly/36whAEL

78 Davies & Wenham, p. 1228.

79 جاءت ملاحظة الانحياز إلى نظرية التعقد في تعقيب أحد مُحكّمَيْ الدراسة، في حين جاءت ملاحظة شحّ المساحة المفرَدة للنظريات الأخرى في تعقيبَي المُحكّمَيْن كليْهما.

بقدر ما أسعى لإظهار مزايا الانتقائية التحليلية[80] وفضلِها في تشكيل فهم غير اختزالي لجائحة كورونا[81].

أخيرًا، إذا كان البحث في الطرائق التي يُفكر بها حقل العلاقات الدولية في جائحة كورونا جزءًا من مشروع إبستيمولوجي في المقام الأول، فإن هذا المشروع لا ينبغي له أن يخلوَ من تأمل نقديّ يتجاوز سؤال "كيف يفكر الحقل المعرفي في الجائحة؟"، وصولًا إلى سؤاليْ "من يفكر؟" و"لأي غرض؟" إذا كان السؤال الأول هو جوهر الإبستيمولوجيَا بوصفها تأملًا في كيفية بناء المعرفة، فإن السؤاليْن الآخريْن يستقيان مسوّغ طرحهما مما يمكن اعتباره إبستيمولوجيا نقديةً؛ إذ يقدمان تأملات في "من" يصنع المعرفة، و"ما الغرض" الذي تُصنَع لأجله تلك المعرفة. ومهمةُ هذه الإبستيمولوجيا النقدية هو السعي للاشتباك، مجددًا، مع عبارة روبرت كوكس الذائعة الصيت، "النظرية هي دائمًا لشخص ما، ولغرض ما"[82]؛ مثلما ينبغي أن ينصبّ اهتمامها على الكشف عما هو سياسيٌّ ضمن ما يُقدَّم للجمهور على أنه تفكيرٌ نظريٌّ مـ(تـ)جرّد في جائحة كورونا التي صارت، إلى الآن، جزءًا لا يتجزأ من معيش الناس اليومي.

80 ينظر: محمد حمشي، "الانتقائية التحليلية في حقل العلاقات الدولية"، **سياسات عربية**، العدد 28 (أيلول/ سبتمبر 2017).

81 في هذا السياق، يحذّرنا عبد النور بن عنتر من الانقياد خلف الادّعاء أن الاستجابات الدولية للجائحة أكّدت، إلى حدّ بعيد، المقولات الواقعية، وفنّدت إلى حدٍّ ما المقولات الليبرالية، بما فيها المؤسساتية، فالأمر مثلًا ليس صراعًا بين "الشر" الواقعي و"الخير" الليبرالي، أو بين "الطبيعي" المعقد و"الاجتماعي" البنائي، لكنه يتعلق أساسًا بالجدوى التحليلية للانتقاء من بين افتراضات هذه النظريات كلها لتفسير الحالة موضوع البحث، وحتى إن بدا ميلُ الميزان إلى نظرية على حساب أخرى، فإنه يبقى ميلًا لم - وربما لن - يُحسَم أمرُه. فالروافد النظرية الأربعة التي تستند إليها الدراسة، تفيد كلُّها، لكن جزئيًا فحسب. لذلك، فنحن في حاجة إلى توليفة انتقائية، هي وحدها الكفيلة بتقديم فهم متكامل ومتسق للجائحة. عبد النور بن عنتر، في تعقيب على الورقة عبر بريد الباحث الإلكتروني (بتصرف).

82 Robert Cox, "Social Forces, States and World Orders: Beyond International Relations Theory," *Millennium: Journal of International Studies*, vol. 10, no. 1 (1981), p. 128.

المراجع

العربية

أمنكاي، عبد الكريم. "شعبويو السلطة وجائحة كورونا: بين اعتيادية التدابير وخصوصية الخطاب، حالة الولايات المتحدة تحت إدارة دونالد ترامب". **سياسات عربية**. العدد 50 (أيار / مايو 2021).

بروسنان، ديبورا، وجيمس بوهلاند وأندرياس ريتشكيمر. "عقد اجتماعي جديد في ظل أزمة عالمية". كلية السياسات العامة. جامعة حمد بن خليفة. في: https://bit.ly/3rMxvXP

بشارة، عزمي. **في الإجابة عن سؤال ما الشعبوية**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019.

_____. "الشعبوية والأزمة الدائمة للديمقراطية". **سياسات عربية**. العدد 40 (أيلول/ سبتمبر 2019).

حسين، أحمد قاسم. "النظام الـدولي وجائحة كورونا: سجال تأثير الأوبئة في العلاقات الدولية". **سياسات عربية**. العدد 50 (أيار/ مايو 2021).

حمشي، محمد. "الانتقائية التحليلية في حقل العلاقات الدولية". **سياسات عربية**. العدد 28 (أيلول/ سبتمبر 2017).

_____."السببية مشكلة في حقل العلاقات الدولية: ما الذي يمكن تعلّمه من علم التعقّد؟". **سياسات عربية**. العدد 41 (تشرين الثاني/ نوفمبر 2019).

_____. "عن إمكانية التنبؤ زمن جائحة كورونا: تأملاتٌ من علم التعقّد". **تحليل سياسات**. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. 2020/6/22. في: https://bit.ly/2Z4qAgv

_____. "نظرية التعقد في العلاقات الدولية: النظام الدولي كنظام معقد وشواشي السلوك". **المستقبل العربي**. السنة 42، العدد 484 (حزيران/ يونيو 2019).

_____. "نظرية التعقد والنقاش النظري الخامس في حقل العلاقات الدولية: مراجعة للأدبيات". **المجلة الجزائرية للأمن والتنمية**. العدد 7 (كانون الثاني/ يناير 2018).

_____. **مدخل إلى نظرية التعقد في العلاقات الدولية**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2021.

خيّر، شهرزاد. "الاقتصاد السياسي الدولي وجائحة كورونا: تأملات نظرية ومساءلات مبكرة". **سياسات عربية**. العدد 50 (أيار/ مايو 2021).

دان، تيم، وميليا كوركي وستيف سميث (محررون). **نظريات العلاقات الدولية: التخصص والتنوع**. ترجمة ديما الخضرا. سلسلة ترجمان. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016.

كاييه، آلان وستيفان دوفوا (إشراف). **التحول العولمي للعلوم الاجتماعية**. ترجمة جان ماجد جبور. بيروت: مؤسسة الفكر العربي، 2017.

موده، كاس وكريستوبل روفيرا كالتواسر. **مقدمة مختصرة في الشعبوية**. ترجمة سعيد بكار ومحمد بكار. سلسلة ترجمان. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2020.

الأجنبية

Adam, Taghreed. "Advancing the Application of Systems Thinking in Health." *Health Research Policy Systems*. vol. 12, no. 50 (2014).

Afsahi, Afsoun. et al. "Special Issue: Democracy in the Time of COVID-19." *Democratic Theory*. vol. 7, no. 2 (2020).

Angelia, Federica & Andrea Montefusco. "Sensemaking and Learning During the Covid-19 Pandemic: A Complex Adaptive Systems Perspective on Policy Decision-Making." *World Development*. no. 136 (December 2020).

Anyanwu, Raymond N. "Looking through the Lens of Complexity Theory: An Evaluation of Climate Change and Coronavirus 2019 Outbreak." *Asian Journal of Interdisciplinary Research*. vol. 3, no. 2 (May 2020).

Basrur, Rajesh & Frederick Kliem. "Covid-19 and International Cooperation: IR Paradigms at Odds." *SN Social Science*. vol. 1, no. 1 (2021).

Bradleya, Declan Terence et al. "A Systems Approach to Preventing and Responding to COVID-19." *EClinilcal Medicine*. vol. 21 (April 2020). at: https://bit.ly/2Z7zKJf

Bratianu, Constantin. "Toward Understanding the Complexity of the COVID-19 Crisis." *Management & Marketing*. vol. 15, no. S1 (October 2020).

Carey, Gemma et al. "Systems Science and Systems Thinking for Public Health." *BMJ Open*. vol. 5 (2015).

Cilliers, Paul. *Complexity and Postmodernism: Understanding Complex Systems*. New York: Routledge, 1998.

Cox, Robert. "Social Forces, States and World Orders: Beyond International Relations Theory." *Millennium: Journal of International Studies*. vol. 10, no. 1 (1981).

Davies, Sara E. & Clare Wenham. "Why the COVID-19 Response Needs International Relations." *International Affairs*. vol. 96, no. 5 (September 2020).

Deyermond, Ruth. "Eppur si muove: Realism in the Age of Pandemic." *New Perspective*. vol. 28, no. 4 (2020).

Dinnen, Mark J. "The Pandemic Threat: Re-establishing the Utility of Hans Morgenthau's Classical Realism for 21st Century International Relations." PhD. Dissertation. Department of International Relations. Faculty of Humanities and Social Sciences. Bond University. Queensland, 2011. at: https://bit.ly/3jwE8dR

Dixit, Rekha. "India Leads Regional Response to Coronavirus Pandemic." *The Week Magazine*. 15/3/2020. at: https://bit.ly/2JQoUiY

Drezner, Daniel W. "The Song Remains the Same: International Relations after COVID-19." *International Organization*. vol. 74, no. S1 (December 2020). at: https://bit.ly/3A5ries

El-Sayed, A.M. & S. Galea. *Systems Science and Population Health*. Oxford: Oxford University Press, 2017.

Gonella, Francesco. et al. "Addressing COVID-19 Communication and Management by a Systems Thinking Approach." *Frontiers in Communication*. vol. 5 (July 2020).

Grimes, Peter E. "Evolution and World-Systems." *Journal of World-System Research*. vol. 23, no. 2 (2017).

Gvosdev, Nikolas. "Why the Pandemic Has Revived Hard-Nosed Realism." *World Politics Review*. 8/9/2020. at: https://bit.ly/3p9S92y

Kavalski, Emilian. "The Fifth Debate and the Emergence of Complex International Relations Theory." *Cambridge Review of International Affairs*. vol. 20, no. 03 (2007).

_____. "The Complexity of Global Security Governance: An Analytical Overview." *Global Society*. vol. 22, no. 4 (2008).

_____ (ed.). *World Politics at the Edge of Chaos*. New York: State University of New York Press, 2015.

Kissane, Dylan. "Moving Beyond Anarchy: A Complex Alternative to a Realist Assumption." PhD. Dissertation. School of International Studies. University of South Australia. Australia, 2009.

Klement, Rainer Johannes. "Systems Thinking about SARS-CoV-2." *Frontiers in Communication*. vol. 5 (October 2020).

Kluge, Hans et al. "Strengthening Global Health Security by Embedding the International Health Regulations Requirements into National Health Systems." *BMJ Global Health*. vol. 3 (2018). at: https://bit.ly/36whAEL

Krauth, Stefanie J. et al. "A Call for Systems Epidemiology to Tackle the Complexity of Schistosomiasis, Its Control, and Its Elimination." *Tropical Medicine and Infectious Disease*. vol. 4, no. 1 (March 2019).

Lund, Eiliv & Vanessa Dumeaux. "Systems Epidemiology in Cancer." *Cancer Epidemiology and Prevention Biomarkers*. vol. 17, no. 11 (November 2008).

Mangiarotti, S. et al. "Chaos Theory Applied to the Outbreak of COVID-19: An Ancillary Approach to Decision-Making in Pandemic Context." *Epidemiology and Infection*. vol. 148 (May 2020).

McIntosh, Chris. "Writing Quantum Entanglement into International Relations." *Millennium: Journal of International Studies*. vol. 49, no. 1 (2020).

Mede, Niels G. "'The People Have Enough of Experts!' How to Understand Populist Challenges

Hale, Thomas et al., "Variation in Government Responses to COVID-19." *BSG Working Paper Series*. no. 32 University of Oxford (May 2020). at: https://bit.ly/2NhQ0V0

Haley, David, Alberto Paucar-Caceres & Sandro Schlindwein. "A Critical Inquiry into the Value of Systems Thinking in the Time of COVID-19 Crisis." *Systems*. vol. 9, no. 1 (2021)

Hamilton, Clive. "Silencing the Scientists: The Rise of Right-Wing Populism." *Our World*. 2/3/2011. at: https://bit.ly/2N0fEOr

Hassan, Imad et al. "A Systems Thinking Approach for Responding to the COVID-19 Pandemic." *Eastern Mediterranean Health*. vol. 26, no. 8 (2020).

Ibn-Mohammeda, T. et al. "A Critical Analysis of the Impacts of COVID-19 on the Global Economy and Ecosystems and Opportunities for Circular Economy Strategies." *Resources, Conservation & Recycling*. vol. 164 (January 2021).

International Organization. vol. 74, no. S1 (December 2020). at: https://bit.ly/3wDUqqA

Jackson, Michael C. "How We Understand 'Complexity' Makes a Difference: Lessons from Critical Systems Thinking and the Covid-19 Pandemic in the UK." *Systems*. vol. 8, no. 4 (November 2020).

Jaworsky, Bernadette Nadya & Runya Qiaoan, "The Politics of Blaming: The Narrative Battle between China and the US over COVID-19." *Journal of Chinese Political Science*. vol. 25, no. 4 (2020).

Jesus, Tiago S., Michel D. Landry & Karen Jacobs. "A 'New Normal' Following COVID-19 and the Economic Crisis: Using Systems Thinking to Identify Challenges and Opportunities." *Work*. vol. 67 (2020).

Joffe, M. et al. "Causal Diagrams in Systems Epidemiology." *Emerging Themes in Epidemiology*. vol. 9, no. 1 (2012).

Price-Smith, Andrew T. *Contagion and Chaos: Disease, Ecology, and National Security in the Era of Globalization*. Cambridge, MA/ London: The MIT Press, 2009.

Prügl, Elisabeth. "The Gender Thing: Apparatuses and Intra-Agential Ethos." *Millennium: Journal of International Studies*. vol. 49, no. 1 (2020).

Ramos, Gabriela & William Hynes. "A Systemic Resilience Approach to Dealing with Covid-19 and Future Shocks." *New Approaches to Economic Challenges (NAEC)*. OECD. 28/4/2020. at: https://bit.ly/2N8OYKX

Rausch, Thomas. "What if the Covid19 World is what States Make of it?" Bertelsmann Stiftung. 16/4/2020, at: https://bit.ly/2MKhYZZ

Rosenau, James. "Patterned Chaos in Global Life." *International Political Science Review*. vol. 9, no. 4 (1988).

Rosenau, James. *Distant proximities: Dynamics Beyond Globalization*. Princeton: Princeton University Press, 2003.

Sjoberg, Laura. "Quantum Ambivalence." *Millennium: Journal of International Studies*. vol. 49, no. 1 (2020).

Stengel, Frank A., David B. MacDonald & Dirk Nabers (eds.). *Populism and World Politics*. Cham, Switzerland: Palgrave Macmillan, 2019.

Sturmberg, J.P. *The Value of Systems and Complexity Sciences for Healthcare*. Berlin: Springer Publishing, 2016.

Sturmberg, Joachim P. & Carmel M. Martin. "Covid-19: How a Pandemic Reveals that Everything is Connected to Everything Else." *Journal of Evaluation in Clinical Practice*. vol. 26, no. 5 (2020).

Wallerstein, Immanuel. *After Liberalism*. New York: The New Press, 1995.

_____. *World-Systems Analysis: Introduction*. 4th ed. North Carolina: Duke University Press, 2004.

to Science." Public Understanding of Science Blog: Science & society/ Communication. 10/6/2020. at: https://bit.ly/3pe9tDz

Morin, Edgar. *On Complexity*. Robin Postel (trans.). Cresskill, NJ: Hampton Press, Inc., 2008.

Murphy, Michael P.A. "Forum on Laura Zanotti, Ontological Entanglements, Agency, and Ethics in International Relations: Exploring the Crossroads (Routledge, 2019)." *Millennium: Journal of International Studies*. vol. 49, no. 1 (2020).

_____. "Quantising Post-critique: Entangled Ontologies and Critical International Relations." *Millennium: Journal of International Studies*. vol. 49, no. 1 (2020).

Newell, B. et al. "Seeing Obesity as a Systems Problem." *New South Wales Public Health Bulletin*. vol. 18, no. 11-12 (November 2008).

Nugroho, Ganjar. "Constructivism and International Relations Theories." *Global & Strategies*. vol. 2, no. 1 (January 2008).

Pan, Chengxin. "Enfolding wholes in Parts: Quantum holography and International Relations." *European Journal of International Relations*. vol. 26, no. S1 (2020).

Paul, Elisabeth, Garrett W. Brown & Valery Ridde. "COVID-19: Time for Paradigm Shift in the Nexus Between Local, National and Global Health." *BMJ Global Health*. vol. 5 (2020).

Pearce, Neil & Franco Merletti. "Complexity, Simplicity, and Epidemiology." *International Journal of Epidemiology*. vol. 35, no. 3 (June 2006).

Postavaru, Octavian, S.R. Anton & Antonela Toma. "COVID-19 Pandemic and Chaos Theory." *Mathematics and Computers in Simulation*. vol. 181 (March 2021).

Walt, Stephen M. "The Realist's Guide to the Coronavirus outbreak." *Foreign Policy*. 9/3/2020, at: https://bit.ly/2Z0JQeC

Wang, Fengbin & Xue Zhang. "Microstructures and Dynamic Processes within the Five-Phase System: Regarding COVID-19 as a Complex System." *Frontiers of Business Research in China*. vol. 14, no. 20 (September 2020).

Wendt, Alexander. "Anarchy is What States Make of it: The Social Construction of World Politics." *International Organization*. vol. 46, no. 1 (1992).

Yıldız-Alanbay, Sengül. "The Matter of Affect in the Quantum Universe." *Millennium: Journal of International Studies*. vol. 49, no. 1 (2020).

Zanotti, Laura. "A Response to the *Millennium* Forum." *Millennium: Journal of International Studies*. vol. 49, no. 1 (2020).

Zanotti, Laura. *Ontological Entanglements, Agency, and Ethics in International Relations: Exploring the Crossroads.* London: Routledge, 2018.

Zheng, Hua & Aldo Bonasera. "Chaos, percolation and the Coronavirus Spread." *Frontiers in Physics*. vol. 135 (April 2020).